الفضيل بن عياض

صوفي من الرعيل الأول

بقلم

فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

إهداء ٢٠١٦
هيئه الرقابه الاداريه
جمهورية مصر العربية

الفضيل بن عياض

صوفيّ من الرعيل الأول

بقلم

فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود

وكيل الأزهر

الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون ٣١٨١٠

الفصل الأول

حياة الفضيل

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين . وبعد :

فاننا كلما أخذنا فى دراسة حياة صوفى من الصوفية ، تذكرنا فى سرعة : الشبلى رحمه الله ، وقد سئل : لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟

فقال : لبقيا بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء ، ولا تعلقت بهم .

لقد احب الصوفية التخلص من الأسماء ، ومن الانيه .. لقد أحبوا أن يفنوا فى الله سبحانه وتعالى :

ان يقوموا به ، وأن يتخلقوا بأخلاقه ، وأن تفنى شخصيتهم فيه : فى ارادته ، فى حبه ، فى مرضاته .. أن يسترسلوا معه كما أحب ، لايكون لهم هوى فى غير شريعته ، ولا تكون لهم ارادة فى غيرما أمر .. أن يذوبوا فى محيط الاطلاق ...

وهم لذلك ينأون عن الحديث عن أنفسهم ، ويبتعدون عن ذكر صفاتهم الخاصة ، وأحوالهم الفردية ...

ومن أجل ذلك : لاتكاد تجد تاريخا شخصيا للصوفية ، ومن هنا فاننا لانكاد نجد تاريخا شخصيا للفضيل بن عياض رحمه الله .

ونحن نكتب هنا كلمات يسيرة نستخلصها من هنا وهناك ، مما روى عن حياته :

انه : أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى ثم اليربوعى ..

انه : عربى من قبيلة تميم ..

ولد بخراسان ، من ناحية مرو ، بقرية يقال لها « فندين (١) » وكان أبوه معروفا : لقد كان معروفا بخشية الله والخوف منه ..

يقول سفيان بن عيينة ، العالم المشهور :
« ما رأيت احدا أخوف لله من الفضيل وأبيه » .

واحب هذا الوالد المؤمن أن ينشأ ابنه على غراره .. ولكن هذا الابن لم يحقق رغبة أبيه فى بواكير شبابه .. فقد انحرفت به الحياة ، فيما يبدو ، فى عهد مبكر من حياته ..

ولكن جو الاستقامة الذى نشأ فيه ، وجو الايمان الذى تفتحت عيناه عليه ، كان كامنا فى نفســه ، لم يزل أثره ، فكانت حيــاة الانحراف التى عاشها فى العهد الأول من شبابه حياة عابرة ، لفترة مؤقتة ، ثم تغلب عليها جوهر فطرته الطاهرة ، وما لبث أن حصل له هذا الانقلاب المفاجىء الذى يهيئه الله سبحانه لمن أحب من عباده فينتشلهم به من البعد عنه الى القرب منه ..

يقول الفضيل بن موسى ، كما يروى صاحب كتاب تهـذيب التهذيب :

« كان الفضيل بن عياض ، شطارا يقطع الطريق بين أبيورد ، وسرخس وكان سبب توبته أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران اليها ، اذ سمع تاليا يتلو :

(١) بضم الفاء وسكون النون ودال مكسورة : من قرى مرو

« الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله » ؟ ..

فلما سمعها قال :

« بلى يارب قد آن » .

فرجع ، فآواه الليل الى خربة ، فاذا فيها سابلة ، فقال بعضهم : نرتحل .. وقال بعضهم .. حتى نصبح ، فان فضيلا على الطريق يقطع علينا ..

قال : ففكرت ، فقلت : انا اسمع اسمى بالليل فى المعاصى ؟ وقوم من المسلمين يخافوننى هاهنا ، وما ارى الله سائقى اليهم الا لأرتدع .. اللهم انى قد تبت اليك ، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام » ..

لقد سمع الفضيل النداء الالهى يدوى من اعماق نفسه وسمعه متجاوبا مع التالى للقرآن الكريم . بل ربما لم يكن هناك تاليا ، وانما هو التطلع الكامن فى نفس الفضيل الى حياة التقوى والفضيلة ، والطهر النفسى والوجدانى ...

وتاب الفضيل توبة خالصة لوجه الله .. ولكنه لم يذهب الى مكة مباشرة ، وربما كان ذلك هيبة من البيت الحرام ، أن يدخله ولما يتأهب لدخوله بعد ...

وما من شك فى أن التوبة الخالصة ، من كبريات المؤهلات لدخول البيت الشريف ...

بيد أن الفضيل احب أن يذهب الى البيت وهو متسلح - مع الطهر - بالتوبة ، بالعلم ، ان هذا البيت قد زاد الله من تشريفه وتعظيمه حينما اقتضت حكمته تعالى أن يجعله مكان البعثة المحمدية ، حيث شهدت جدرانه محمدا صلى الله عليه وسلم يطوف به ، ويسير حوله ، داعيا الى الله وحده لاشريك له ، مناديا :

« لا اله الا الله » ..

وكانت هذه الكلمة تزلزل قواعد الشرك ، وتقع غصة في قلوب المشركين .. وان من حرمة هذا البيت ـ فيما يرى الفضيل ـ أن لاتشد اليه الرحال ، الا وانت على علم بما ينبغي أن تكون عليه فيه .. لابد اذن من العلم قبل الذهاب اليه ..

اين يذهب ليتعلم ، ولتكون توبته قائمة على أساس من المعرفة الصادقة ، كما هي قائمة على أساس من الشعور النفسي الصادق ؟

لقد يمم الفضيل وجهه شطر الكوفة ..

يقول ابن سعد : « وقدم الكوفة وهو كبير » ..

ولما حل الفضيل بالكوفة ، اخذ ينهل من العلم نهلا ..

لقد اخذ يحضر نهاره على كبار اساتذة الحديث ـ على الخصوص ـ ويسهر ليله في استذكار ما سمع وتعلم ..

وكان الفضيل صاحب ذاكرة قوية ، وفطنة نفاذة .. وكانت عنده المؤهلات التى لاينبغ المحدث الا بها :

لقد كان قوي الذاكرة ، بحيث يسهل عليه حفظ السند والمتن .. وكان فطنا بحيث يتصرف في مشكلات العلم على اسلوب ذكي وكان مخلصا لتراث اشرف الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .. وكان متعطشا للمعرفة حريصا عليها ، وكان حرصه لما راى في المعرفة من متعة ولذة .. ولأنه كان نادما على فترة امضاها في البعد عن هذا الجو ، فقد حرص حرصا شديدا على استدراك مافاته ..

وبرع الفضيل في الحديث :

ونقله الحديث من جو التوبة الساذجة الى جو التوبة التى شفت بالحديث ، وسمت بمعرفة كيفية المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

لقد اصبحت توبته على بصيرة ..

ووجهته هذه المعرفة ، وهذه التوبة العارفة الى العبادة على اسلوب المتابعة الدقيقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونعم بعبادته فاستغرق فيها ، ونعم بالمعرفة فاستغرق فيها .. ثم ..

ثم لما رأى نفسه اهلا للذهاب الى مكة ، ومجاورة البيت الحرام : سافر اليها ، واستقر فيها الى ان مات بها فى اول سنة سبع وثمانين ومائة ، عن نحو ثمانين سنة .. ودفن بباب المصلى ..

ولقد عاش الفضيل بعد توبته عيشة متزنة ، فقد تزوج ، وكان له ابناء ، منهم : ابنه على .. وقد كان الفضيل معنيا به ، يتتبع اخباره ، ويوجهه بطريق مباشر او غير مباشر :

فمرة قيل له : إن عليا يقول : وددت انى بمكان ارى النـاس ولا يروننى ..

فقال : ويح على ، افلا اتمها فقال : لا اراهم ولا يروننى ..

ويبدو أن الفضيل ــ رضى الله عنه ــ رأى عليا مرة فى زهو وفى كبر ، فأخذ يحد من غربه ، ومما قاله له :

لعلك ترى انك شيء ؟ الجعل أطوع لله منك ..

وكان الفضيل يكنى به ، فيقال له : « يا أبا على » ...

وكان للفضيل ابن آخر هو : « ابو عبيدة » .. وكان الفضيل يحبه ، ويقول :

« انى لاحبه ، واحبه لانه جاءنى على كبر » ..

* * *

ويبدو أن الفضيل لم يكن ثريا ، وأن حياته ما كانت حيـاة رخاء ..

ولكن الذين يؤرخون له ، يتحدثون عن خادم له .. ولقد روى هذا الخادم الكثير عن حياة الفضيل الدينية ، وكان خادما عالما اكتسب من صحبة الفضيل الكثير من المعرفة : انه ابراهيم بن الاشعث ، الذى تفانى فى حب الفضيل وفى خدمته ، والذى ندين له بكثير مما نعرف عن الفضيل ..

ويبدو ان هذا الخادم العالم لم يكن الوحيد عند الفضيل ..

فقد كان للفضيل جارية سوداء ، هى التى قالت لهارون الرشيد ـ حينما كان عند الفضيل :

« ياهذا : لقد آذيت الشيخ منذ الليلة ، انصرف يرحمك الله » .

وكان للفضيل حمار يركبه .. وكان الفضيل يقول :

« انى لأعصى الله فأعرف ذلك فى سوء خلق خادمى وحمارى » .

ويذكر صاحب « صفة الصفوة » انه كان يقول :

« اصلح ما اكون ، افقر ما اكون ، وانى لأعصى الله فاعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى » ..

اى انه ربما صدر منه عمل ليس من اعمال المقربين ، صدر منه دون شعور به ، ولا انتباه له ، فيرجع الى نفسه ـ حينما يرى سوء خلق خادمه أو حماره ـ يحاسبها على مافعلت ليستغفر ويتوب ..

فاذا اردنا أن نعرف الآن مصدر الرزق فى حياة الفضيل ، فان الامام الشعرانى رضى الله عنه يقول عن الفضيل :

« وكان رضى الله عنه يسقى على الدوام ، وينفق من ذلك على نفسه وعياله » ...

ويبدو أن الخادم او الخدم ، انما كانوا من اجل معاونته على السقى ؛ ويبدو أن الحمار كان من اجل ذلك ايضا ...

والأمر المؤكد : هو أن الفضيل لم يكن مترفا فى حياته ، وانما كان يعيش من عمل يده ، من كسب حلال طيب ..

يقول ابن حبان عنه : « أقام بالبيت الحرام مجاورا ، مع الجهد الشديد ، والورع الدائم ، والخوف الوافر ، والبكاء الكثير ، والتخلي بالوحدة ، ورفض الناس ، وما عليه من أسباب الدنيا ، الى أن مات بمكة » ..

كان الفضيل يعيش على هذا النسق ، مع أن الدنيا كانت تعرض عليه فى صورة الآلاف من الدنانير ، من الملوك والأمراء والأثرياء هدايا ، فيرفضها ، انه يريد أن لايقذف الى جوفه الا باللقمة الحلال ، ويذكر فى ذلك قصة سعد رضى الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا ايها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .. فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ..

فقال : ياسعد اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه اربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا ، فالنار أولى به » ..

ويذكر - أيضا - قوله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس ! .. ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمير المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال :

« يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » وقال :

« يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث اغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام ولبسه حرام وغذى بالحرام ، يمد يديه الى السماء ، يارب يارب ، فانى يستجاب لذلك » (١) .

وكان الفضيل راضيا بحياته الفقيرة ..

انه ـ على حد تعبيره ، أصلح ما يكون .. افقر ما يكون ..

بل : لقد كان الفضيل شاكرا لله سبحانه على هـذه الشدة فى حياته .. ويرى ان ذلك فضل من الله عظيم ، انه يقول :

« أجعتنى واجعت عيالى ، وتركتنى فى ظلم الليل بلا مصباح ؟ وانما تفعل ذلك بأوليائك ، فبأى منزلة نلت هذا منك ؟ .. » ..

والتزم الفضيل ـ فى حياته ـ الشريعة التزاما كاملا ، واقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداء تاما بقـدر استطاعته ..

انه يقول : اسلك الحياة الطيبة : الاسلام والسنة ، ولا تخرج الحياة الطيبة ـ فى نظره ـ عن ذلك . انها الاتباع ..

انظر مثلا الى موقفه من الفرائض والنوافل :

يقول ابراهيم بن الأشعث : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« لن يتقرب العباد الى الله بشيء افضـل من الفرائض .. الفرائض رءوس الأموال ، والنوافل الأرباح » ..

ويسير الفضيل ـ فى هذا ـ متناسقا مع الحديث الشريف الذى يبين كيفية القرب من الله ، ويبين السبيل الى حب الله

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن غريب

للعبد .. هذا الحديث الجميل الذى رواه الامام البخارى رضى الله عنه ـ بسنده ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

« أن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته » ...

وينصح الفضيل بالفرار من الناس الى الله ، فيقول :

« فر من الناس غير تارك للجماعة » .

ويحمل الفضيل على أصحاب البدع حملات متكررة ، يروى عنه عبد الصمد بن يزيد قوله :

« من أحب صاحب بدعة ، أحبط الله عمله ، وأخرج نور الاسلام من قلبه » ...

ومن كلامه فى أصحاب البدع :

« من علامات البلاء أن يكون الرجل صاحب بدعة » ..

« نظر المؤمن الى المؤمن جلاء القلب ، ونظر الرجل الى صاحب البدعة يورث العمى » ...

« من أعان صاحب بدعة ، فقد أعان على هدم الاسلام »

« لا يرتفع لصاحب بدعة الى الله عمل »

« اذا رأيت مبتدعا فى طريق ، فخذ فى طريق آخر »

ويحث الفضيل فى صورة نبيلة على أن لا يخوض الناس فى

الصحابة ، ويرى ان الخوض فيهم من البدع التى يبغضها الله تعالى ، ويقول فى ذلك :

« انى أحب من احبهم الله ، وهم الذين يسلم منهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبغض من أبغضه الله ، وهم أصحاب الاهواء والبدع »

ويروى عبد الصمد بن يزيد ، عن الفضيل ، حديثا يحدد فى كثير من الزوايا موقف الفضيل من اصحاب البدع ، فيقول ، سمعت الفضيل يقول :

« لان آكل عند اليهودى والنصرانى احب الى من ان آكل عند صاحب بدعة ، فانى اذا اكلت عندهما لا يقتدى بى ، واذا اكلت عند صاحب بدعة ، اقتدى بى الناس » .

« احب أن يكون بينى وبين صاحب البدعة حصن من حديد ..

وعمل قليل فى سنة ، خير من عمل صاحب بدعة ..

ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ..

ومن جلس الى صاحب بدعة فاحذره ..

وصاحب بدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره فى أمرك ، ولا تجلس اليه ، فمن جلس اليه ورثه الله عز وجل ، العمى ..

واذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة ، رجوت أن يغفر الله له ، وان قل عمله ، فانى أرجو له .. لأن صاحب السنة يعرض كل خير ، وصاحب البدعة لا يرتفع له الى الله عمل ، وان كثر عمله » ..

قال : وسمعت الفضيل يقول :

« ان لله عز وجل ملائكة يطلبون حلق الذكر ، فانظر مع من يكون

مجلسك ؟ لا يكون مع صاحب بدعة ، فان الله تعالى لا ينظر اليهم ..

وعلامة النفاق ان يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعه ..

وادركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ، وهم ينهون عن أصحاب البدعة ..

قال : وسمعت فضيلا يقول :

« ان لله عبادا يحيى بهم العباد والبلاد ، وهم أصحاب سنة » .

اما موقف الفضيل من السلف ، فهو موقف رجل الشريعة الصادق :

عن حسين بن زيد قال : سمعت فضيلا يقول :

« ما على الرجل اذا كان فيه ثلاث خصال ، اذا لم يكن صاحب هوى ، ولا يشتم السلف ، ولا يخالط السلطان » .

وقال مؤمل بن اسماعيل : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« اذا نظرت الى رجل من أصحاب أهل البيت ، كأنى نظرت الى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وذكر الصحابة عند الفضيل فقال :

« اتبعوا فقد كفيتم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب » .. رضى الله عنهم اجمعين

وبعد : فلقد سارت حياة الفضيل على هذا النسق :

توبة خالصة نصوح ، حياة مادية مجهدة ولكنها راضية حامدة ، اتباع دقيق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبغض واضح لأصحاب البدع .

الفصل الثاني

الفضيل وأصحاب السلطان (١)

---

(١) مما يتصل بحياة الفضيل موقفه من أصحاب السلطان وكان من الممكن أن نجعله جزءا من الفصل السابق ولكنا رأينا من الأوفق جعله فصلا مستقلا »

الفضيل واصحاب السلطان

يقول تعالى :

(من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا .. كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا)

ويقول سبحانه :

(من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب) ..

الملوك والصوفية ، النعيم المادى والنعيم الروحى ، الترف المترف والزهد الزاهد ، من ينظرون الى الارض من ينظرون الى السماء ، من يريدون العاجلة ومن يريدون الآخرة ، حرث الدنيا وحرث الآخرة ..

انها اطراف تتعارض وتتصارع ، وهى قائمة على مر الزمن لا تهدأ ولا تفتر .. وان فى المجتمعات ـ قديما وحديثا ـ من يسيرون وراء النزغات والغرائز ، ومن يرتفعون بأنفسهم على النزغات والغرائز ..

وان لجهاد النفس ـ من اجل تزكيتها ـ مكانة كبرى فى الأجواء الدينية :

(قد أفلح من زكاها ..)

والنفس الانسانية بطبعها ميالة الى فتنة الدنيا :

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ..

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) ..

والصوفية يمثلون ـ أقوى وأظهر ما يكون التمثيل ـ التجرد الى الله ، وارادة الآخرة . .

انهم قد تحققوا بقوله تعالى :

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) ..

وطلبوا الباقيات الصالحات ..

وهم يرون فى الناس تطلعا الى الدنيا فى ايدى الملوك والأمراء وأصحاب السلطان ، ويرون تهافت الناس عليهم ، وذلتهم فى سبيل شهواتهم ، وأهوائهم من جاه أو سلطان ، أو مال أو منصب : يراءون ويتزلفون ، ويتملقون ويخضعون ، ويكذبون وينافقون من أجل عرض زائل أو جاه يفنى ..

ويحاول الصوفية فى كل زمن أن يقودوا الناس الى الله :

يقودون أصحاب السلطان بالوعظ والنصيحة الى الله .

ويقودون الشعب بالوعظ والنصيحة ، والقدوة الحسنة الى ايثار الآخرة على العاجلة ..

ولقد كان للفضيل ـ رضى الله عنه ـ فى هذا المجال أثر مشكور محمود .. ولقد كان الفضيل يتجه بنصحه الى الملوك ، والى العلماء ، والى عامة الشعب ..

لقد كان يقول لعامة الشعب :

لأن يدنو الرجل من جيفة منتنة ، خير له من ان يدنو الى هؤلاء – يعنى أصحاب السلطان .

وكان يقول :

رجل لا يخالط هؤلاء ولا يزيد على المكتوبة افضل عندنا من رجل يقوم الليل ويصوم النهار ، ويحج ويعتمر ، ويجاهد فى سبيل الله ويخالطهم .

ويتجه الى العلماء فيبين لهم وضعهم الصحيح قائلا :

لو ان اهل العلم زهدوا فى الدنيا ، لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقادت الناس لهم ، ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما فى ايديهم ، فذلوا وهانوا على الناس .. ومن علامة الزهاد : أن يفرحوا اذا وصفوا بالجهل عند الأمراء ومن داناهم ..

ولقد كان الفضيل يخالط سفيان بن عيينة العالم الشهير ، فكان كلما التقى به يوجه اليه النصح .. ولقد جلس اليه سفيان بن عيينة يوما ، فقال له :

« كنتم معاشر العلماء سرجا للبلاد ، يستضاء بكم .. فصرتم ظلمة .. وكنتم نجوما يهتدى بكم ، فصرتم حيرة .. اما يستحى احدكم من الله اذا اتى الى هؤلاء الأمراء ، وأخذ من مالهم وهو لايعلم من أين اخذوه .. ثم يسند بعد ذلك ظهره الى محراب ويقول : حدثنى فلان عن فلان ..

فطأطأ سفيان رأسه ، وقال : نستغفر الله ، ونتوب اليه » .

وكان اذا اجتمع حوله العلماء يوما ، قال لهم :

« مالكم وللملوك ؟.. ما اعظم منتهم عليكم .. قد تركوا لكم طريق الآخرة فاركبوا طريق الآخرة .. ولكن لا ترضون تبيعونهم

الدنيا ثم تزاحمونهم عليها .. ما ينبغي لعالم أن يرضى هذا لنفسه » ..

ولقد كان للفضيل جولات مع هارون الرشيد ، ولقد كان لهارون الرشيد جولات مع الفضيل ..

لقد كان فى الرشيد سحر الدنيا ، وكان قلبه مع ذلك يتفتح للعظة الخالصة خارجة من قلب مؤمن ..

لقد كان يملك أسباب النعيم الحسى ، فى اسراف مسرف .. وكان يتملكه أحيانا خوف الله ، فيغمره احساس دينى عميق ، وتفيض عبراته .

ولقد كان بهذا الشعور الدينى يجل الذين أخلصوا وجوههم لله ، ويتقبل نصحهم .. بل يهابهم ويقدرهم ..

روى النضر بن شميل قال : سمعت هارون الرشيد يقول :

ما رأيت فى العلماء أهيب من مالك ، ولا أورع من الفضيل ..

ومن طرائف الفضيل مع الرشيد أن قال له الرشيد يوما ، متعجبا من زهده : ما أزهدك ؟

فقال له الفضيل :

ـ أنت أزهد منى ..

قال : وكيف ذلك ؟

قال : لأنى أزهد فى الدنيا وهى فانية ، وأنت تزهد فى الآخرة مع أنها باقية ..

وكان هارون يتقبل نصحه عن طيب نفس ، بل ويطلب منه النصح كلما التقى به .. وما كان الفضيل يسعى اليه ، وانما كان هارون يطلب الفضيل أو يسعى اليه فى بيته ..

ونروى الآن بعض القصص التى تبين مكانة الفضيل من هارون ؟ ومسلك الفضيل بالنسبة للرشيد .

يقول سفيان بن عيينة :

ـ دعانا هارون الرشيد ، فدخلنا عليه .. ودخل الفضيل آخرنا ، مقنعا رأسه بردائه وقال لى :

يا سفيان ، وأيهم أمير المؤمنين ؟

فقلت هذا وأومأت الى الرشيد .

فقال له :

ـ يا حسن الوجه : أنت الذى أمر هذه الأمة فى يدك وعنقك .. لقد تقلدت أمرا عظيما ..

فبكى الرشيد .. ثم أتى لكل منا ببدرة (١) .. فكل قبلها الا الفضيل ، فلاطفه الرشيد وألح عليه ، فاستعفاه منها ..

وبعد الخروج قال له ابن عيينة : هلا أخذتهـا وصرفتها فى أبواب البر ؟ ..

قال ابن عيينة :

فأخذ بلحيتى ثم قال : يا أبا محمد .. أنت فقيه البلد ، وتغلط بمثل هذا الغلط ؟ لو طابت لأولئك لطابت لى ..

أما القصة المستفيضة التى حدثت للفضيل مع هارون الرشيد ؟ والتى رواها ابن الجوزى ، وروتها الحلية ، ورواها الامام الكبير محيى الدين بن عربى ، ورواها غير هؤلاء فهى كما يلى :

حدث الفضل بن الربيع قال :

---

(١) كيس فيه الف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار

« حج امير المؤمنين ، فأتاني ، فخرجت مسرعا .. فقلت يا أمير المؤمنين لو ارسلت الى اتيتك ..

فقال : ويحك .. قد حاك فى نفسى شىء ، فانظر لى رجلا اسأله ..

فقلت : ها هنا سفيان بن عيينة ..

فقال : امض بنا اليه ..

فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فقال : من ذا ؟

قلت : اجب امير المؤمنين ..

فخرج مسرعا فقال : يا امير المؤمنين ، لو ارسلت الى اتيتك ..

فقال : خذ لما جئناك له ، رحمك الله .. فحدثه ساعة ثم قال له : عليك دين ؟

فقال : نعم ..

فقال : أبا عباس اقض دينه ..

فلما خرجنا قال : ما اغنى عنى صاحبك شيئا .. انظر لى رجلا اسأله ..

قلت : ههنا عبد الرزاق بن همام ..

قال : امض بنا اليه ..

فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فخرج مسرعا ، فقال : من هذا ؟

قلت : اجب امير المؤمنين ..

فقال : يا امير المؤمنين .. لو أرسلت الى اتيتك

فقال : خذ لما جئناك له ..

فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟

قال : نعم ..

قال : أبا عباس .. اقض دينه

فلما خرجنا قال : ما اغنى عنى صاحبك شيئا .. انظر لى رجلا اسأله ..

قلت : ههنا الفضيل بن عياض

قال : امض بنا اليه

فأتيناه .. فاذا هو قائم يصلى ، يتلو آية من القرآن يرددها ..

فقال : اقرع الباب .. فقرعت الباب .. فقال : من هذا ؟

قلت : اجب امير المؤمنين ..

فقال : مالى ولأمير المؤمنين ؟ ..

فقلت : سبحان الله .. اما عليك طاعة ؟ ..

فقال : اليس قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، انه قال :

« ليس للؤمن ان يذل نفسه » ..

ثم نزل ، ففتح الباب .. ثم ارتقى الى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ الى زاوية من زوايا البيت ..

فدخلنا ، فجعلنا نجول بأيدينا ، فسبقت كف هارون قبلى اليه ..

فقال : يالها من كف .. ما الينها ان نجت غدا من عذاب الله عز وجل ..

فقلت فى نفسى : ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقى ..

فقال له : خذ لما جئناك له ، رحمك الله ..

فقال : ان عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة ، دعا سالم ابن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة فقال لهم :

انى قد ابتليت بهذا البلاء ، فأشيروا على .. فعد الخلافة بلاء ، وعددتها انت وأصحابك نعمة ..

فقال له سالم بن عبد الله : ان اردت النجاة من عذاب الله ، فصم الدنيا ، وليكن افطارك منها الموت .

وقال له محمد بن كعب : ان اردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك ابا ، واوسطهم عندك اخا ، واصغرهم عندك ولدا .. فوقر اباك ، واكرم اخاك ، وتحنن على ولدك ..

وقال له رجاء بن حيوة :

« ان اردت النجاة غدا من عذاب الله ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت اذا شئت » ..

واني اقول لك :

« اني أخاف عليك اشد الخوف يوما تزل فيه الاقدام .. فهل معك رحمك الله مثل هذا ؟ أو من يشير عليك بمثل هذا ؟ »

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه ..

فقلت له : ارفق بأمير المؤمنين ..

فقال : يا ابن الربيع .. تقتله انت واصحابك ، وارفق به أنا ؟

ثم افاق الرشيد ، فقال له : زدني رحمك الله ..

فقال : يا امير المؤمنين : بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكى اليه ، فكتب اليه عمر : « يا أخي .. أذكرك طول سهر أهل النار ، مع خلود الابد .. واياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد ، وانقطاع الرجاء » .

قال : فلما قرأ الكتاب طوى البـــلاد ، حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك .. لا اعود الى ولاية ، حتى القى الله عز وجل » ..

قال : فبكى الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال له :

زدني رحمك الله ..

فقال : يا أمير المؤمنين ! .. ان العبـــاس عم المصطفى صلى الله

عليه وسلم ، جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : امرني على امارة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

« ان الامارة حسرة وندامة يوم القيـامة ، فان استطعت أن لا تكون اميرا فافعل » .

فبكى هارون بكاء شديدا ، ثم قال له — زدني رحمك الله .. قال : يا حسن الوجه ، انت الذي يسألك الله عز وجل عن هـذا الخلق ، يوم القيامة ، فان استطعت أن تقي هذا الوجه من النار ، فافعل .. واياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة » ..

فبكى هارون ، وقال له : عليك دين ؟ ..

قال : نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي ان سألني ، والويل لي ان ناقشني ، والويل لي ان لم ألهم حجتي ..

قال : انما أعني من دين العباد .

قال : ان ربي لم يأمرني بهذا ، انما امرني أن أصدق وعده ؛ واطيع أمره ، فقال جل وعز :

(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ..

فقال له : هذه ألف دينار .. خذها فأنفقها على عيالك ، وتقو بها على عبادتك ..

فقال : سبحان الله ! انا ادلك على طريق النجاة ، وانت تكافئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك ..

ثم صمت ، فلم يكلمنا .. فخرجنا من عنده .. فلما صرنا على

الباب ، قال هارون : اذا دللتنى على رجل فدلنى على مثل هذا .. هذا سيد المسلمين .. فدخلت عليه امرأة من نسائه ، فقالت :

« يا هذا .. قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال ، فلو قبلت هذا المال ، فتفرجنا به ؟ » ..

فقال لها : مثلى ومثلكم ، كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر نحروه ، فأكلوا لحمه » .

فلما سمع هارون هذا الكلام قال :

ندخل فعسى ان يقبل المال .. فلما علم الفضيل ، خرج ، فجلس فى السطح على باب الغرفة .. فجاء هارون فجلس الى جنبه ، فجعل يكلمه فلا يجيبه .. فبينا نحن كذلك ، اذ خرجت جارية سوداء فقالت :

يا هذا : قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله ، فانصرفنا » ..

ولا تنتهى قصص الفضيل مع هارون الرشيد عند هذا الحد ، فها هى ذى قصة اخرى :

يروى يحيى بن يوسف ، أن الفضيل بن عياض لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال : أيكم هو ؟ قال : فأشاروا الى امير المؤمنين فقال : أنت هو : يا حسن الوجه ؟ لقد وليت أمرا عظيما .. انى ما رأيت أحدا هو أحسن وجها منك ، فان قدرت أن لا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل ..

فقال له : عظنى ..

فقال : بماذا أعظك ؟ .. هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه ، وماذا عمل بمن عصاه ..

وقال : انى رأيت الناس يغوصون على النار غوصا شديدا ،

ويطلبونها طلبا حثيثا .. أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها ..

فقال الرشيد : عد الى

فقال : لو لم تبعث الى لم آتك ، وان انتفعت بما سمعت منى عدت اليك » .

والعجيب فى صلة الفضيل بهارون الرشيد هو عاطفة الفضيل بالنسبة للرشيد ، لقد كانت عاطفة معقدة شديدة التعقيد .. انها من الغاز النفس الانسانية ، التى تتكشف عن الغاز ، كلما سبر الانسان بعض أغوارها .. ولقد أدهشت هذه العاطفة الفضيل نفسه ، وتعجب منها .

وهذا الجانب يرويه محمد بن ابى عثمان فيقول :

سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« ما على ظهر الأرض أبغض الى من هارون ، ولا احد احب الى بقاء منه ، لو قيل : انتقص من عمرك ، ويزاد من عمره لفعلت .. ولو خيرت بين موته أو موت هذا ــ يريد ابنه أبا عبيدة ــ وانى لأحبه ــ يعنى أبا عبيدة ــ قال : وأحبه لأنه جاءنى على الكبر ــ لاخترت موت هــذا .. فسبحان الله الذى جمع بين هاتين الخصلتين فى قلبى ..

قال محمد : يريد لما يحدث بعد هارون من البلاء » .

والفضيل ــ انما يحرص على حياة هارون ، رغم بغضه له ؛ لأنه كان يرى فيه ، رغم ما يأخذه عليه ، حزما فى الادارة ، وحسن تصرف فى شئون الناس ، واحتراما للعلماء ، وتقبيلا للوعظ والنصح منهم .. وفى ذلك مصلحة الرعية ..

ومصلحة الرعية ــ عند الفضيل ــ أهم من مصلحته الشخصية .

وفى سبيل هذه المصلحة ، واستمرار بقائها ، لا يضن الفضيل

بأن ينتقص من عمره ، او ان يموت ابنـــه ـ الذى يحبه ـ فداء لهارون ..

* * *

ولم ينس الفضيل ان يرى عدة احاديث شريفة فى شان اصحاب الحكم موجهة ومرشدة منها ما رواه بسنده عن بكير الحريرى ونفر من الأنصار ، قالوا :

اقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاقبل كل رجل منا يوسع الى جنبه رجاء ان يجلس اليه ، حتى قام على الباب ، واخذ بعضادتيه فقال :

الأئمة من قريش ، ولى عليكم حق عظيم ، ولهم مثـــل ذلك ما فعلوا ثلاثا :

اذا استرحموا رحموا .

واذا حكموا عدلوا .

واذا عاهدوا وفوا .

فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكـة والنـاس اجمعين » .

وهذا الحديث الشريف واضح فى واجب الرؤساء على وجه العموم .

وحديث آخر يبين واجب الحكام ايضا .

روى الفضيل بسنده ، ان معاوية ضرب على الناس بعثـا فخرجوا ، فرجع ابو الدحداح ، فقال له معاوية :

الم تكن خرجت مع الناس ؟

قال : بلى ، ولكن سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم

حديثا فأحببت أن أضعه عندك مخافة أن لا تلقاني ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« يا أيها الناس من ولى منكم عملا فحجب بابه عن ذى حاجة للمسلمين ، حجبه الله أن يلج باب الجنة ، ومن كانت الدنيا همته حرم الله عليه جوارى » .

وهكذا كان الفضيل رحمه الله يحاول دائما أن يوجه الحكام الى الطريق المستقيم سواء أكان ذلك بسلوكه أم بقوله ونصائحه ورواياته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وموقف الفضيل من الحكام وذوى السلطان ، موقفه الذى يعتز فيه بالله ورسوله ، موقفه الذى يتمثل فيه الايمان الصادق القوى ، يتمثل فيما ذكره صاحب كتاب « تهذيب الاسمار » من أنه قيل للفضيل :

ــ لم لا تحدث جعفر بن يحيى ؟

قال : انى أجل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحدث به جعفر بن يحيى .

ولم ينس الفضيل أن يوجه النصح باستمرار الى العلماء حتى لا تذل نفوسهم لذى السلطان ، ومن أمثلة ذلك ما قاله لسفيان ابن عيينه :

لقد جلس سفيان بن عيينة ــ وهو قمة من قمم العلم الاسلامى ــ الى الفضيل فقال له الفضل :

« كنتم معشر العلماء سرجا للبلاد يستضاء بكم فصرتم ظلمة ، وكنتم نجوما يهتدى بكم فصرتم حيرة . أما يستحى أحدكم من الله اذا أتى الى هؤلاء الأمراء واخذ من مالهم وهو لا يعلم من أين أخذوه ؟ ... ثم يسند بعد ذلك ظهره الى محرابه ويقول : حدثنى فلان عن فلان ..

فطأطأ سفيان رأسه وقال :

لنستغفر الله ، ونتوب اليه » ..

الفصل الثالث

الفضيل والقرآن

والقرآن ربيع قلوب الصالحين ، ان نجواهم به ، وان نعيمهم فيه ، وانه وردهم مصبحين ، وهو وردهم ممسين ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لايوحى اليه ، لاينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله (١) » .

وللفضيل مع القرآن صحبة ، وله منه هيبة ، واليه محبة ، انه يروى بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأنه ، منها :

روى الفضيل بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ماخيب الله عبدا قام فى جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران ، ونعم كنز المؤمن البقرة وآل عمران » .

وروى الفضيل بسنده عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لاينام حتى يقرأ :

« الم تنزيل الكتاب ، وتبارك الذى بيده الملك » .

وكان الفضيل يصف الذين يقرؤن مخلصين لله وجوههم فيقول :

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

قراء الرحمن أصحاب خشوع وذبول ، وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر وازدراء للعامة .

ويقول : قراء الرحمن أهل ذبول وخشوع ، وقراء الأمراء أهل كبر وعجب وازدراء للناس ، أما قراءة الفضيل في نفسه فقد روى اسحاق بن ابراهيم عنها انها كانت حزينة ، بطيئة ، مترسلة ، كأنه يخاطب انسانا ، وكان اذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها .. أما شعوره نحو القرآن وعاطفته بالنسبة له ، فانها تظهر من القصة التالية التي رواها صاحب صفة الصفوة فقال :

حدث سعد بن زنبور قال : كنا على باب الفضيل فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا .

فقيل لنا : انه لايخرج اليكم أو يسمع القرآن .. قال : وكان معنا رجل مؤذن وكان صيتا فقلنا له : اقرأ ، فقرأ :

« الهاكم التكاثر » . ورفع بها صوته ، فأشرف علينا الفضيل وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه وأنشأ يقول :

بلغت الثمانين أو جزتها   فماذا أؤمل أو انتظر
أتالى ثمانون من مولدى   وبعد الثمانين ما ينتظر
علتنى السنون فأبلينني   . . . .

قال : ثم خنقته العبرة .. وكان معنا على بن خشرم فأتمه لنا فقال :

علتنى السنون فأبلينني   فرقت عظامى وكل البصر

ويتحدث ابراهيم بن الأشعث قائلا :

ما رأيت أحدا كان الله في صدره أعظم من الفضيل ، كان اذا ذكر الله أو ذكر عنده ، أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من بحضرته .

وكان دائم الحزن شديد الفكرة ، ما رأيت رجــلا يريد الله بعلمه واخذه واعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلهـا غيره ـ يعنى الفضيل ـ

اما نصائحه لأهل القرآن فكثيرة منها ما يقوله :

حامل القرآن حامل راية الاسلام ، لاينبغى له ان يلغو مع من يلغو ، ولا أن يلهو ، مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، وينبغى لحامل القرآن ان لا يكون له الى الخلق حاجة ، لا الى الخلفـاء فمن دونهم ، وينبغى أن يكون حوائج الخلق اليه .

وكان رضى الله عنه يقول :

« من قرأ القرآن سئل يوم القيامة كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تبليغ الرسالة فانه وارثهم » .

وكان يقول :

« لاينبغى لحامل القرآن أن يكون له حاجة عند احد من الأمراء والاغنياء ، انما ينبغى أن يكون حوائج الخلق اليه هو » .

اما من اعطى فهم القرآن فانه فيما أعلن الفضيل قد أعطى علم الاولين والآخرين .

وقد رويت له بعض تفسيرات لعدد قليل من الآيات ، واننا لناسف أن لم يرو له الكثير من ذلك ؛ ومن تفسيراته .

قال فى قوله تعالى :

« ليبلوكم ايكم احسن عملا » . يعنى أخلصه واصوبه ... أن العمل يجب ان يكون خالصا لله ، وصوابا على متابعة النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

وقال فى ذلك أيضا :

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

« ليبلوكم ايكم احسن عملا » . قال : اخلصه واصوبه ، فانه اذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، واذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا ، والخالص اذا كان لله ، والصواب اذا كان على السنة » .

ويحدث داود بن مهران قال : سمعت فضيلا يقول فى قوله :

« واوفوا بعهدى أوف بعهدكم » . قال :

اوفوا بما امرتكم ، أوف لكم بما وعدتكم .

وعن سهيل بن عاصم قال : سمعت ابراهيم بن الأشعث يقول : سمعت فضيلا يقول فى قوله تعالى :

« ولا تقتلو انفسكم ان الله كان بكم رحيما » . قال : تغفلوا عن انفسكم فان من غفل عن نفسه فقد قتلها .

وقال ابراهيم بن الأشعث سمعت فضيلا يقول ذات ليلة وهو يقرا سورة محمد ويبكى ويردد هذه الآية :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » .

وجعل يقول : ونبلو اخباركم ، ويردد وتبلو اخبارنا ؟

ان بلوت اخبارنا فضحتنا وهتكت استارنا ، انك ان بلوت اخبارنا اهلكتنا وعذبتنا .. ويبكى » .

وعن الحسن بن على العابد قال : قال فضيل بن عياض لرجل : كم اتت عليك ؟

قال : ستون سنة .

قال : فانت منذ ستين سنة تسير الى ربك توشك ان تبلغ .

فقال الرجل : يا أبا على ، انا لله وانا اليه راجعون .

قال له الفضيل : تعلم ما تقول ؟

قال الرجل : قلت انا لله وانا اليه راجعون .

قال الفضيل : تعلم ماتفسيره ؟
قال الرجل : فسره لنا يا ابا علي .
قال : قولك انا الله ، تقول : انا لله عبد ، وانا الى الله راجع ؟ فمن علم انه عبد الله وانه اليه راجع ، فليعلم بأنه موقوف ، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابا ، فقال الرجل : فما الحيلة ...

قال : تحسن فيما بقي يغفرلك ما مضى وما بقي ، فانك ان اسأت فيما بقي اخذت بما مضى وما بقي .

وعن محمد بن ابراهيم قال : حدثنا أبو يعلى حدثنا عبد الصمد قال : سمعت الفضيل يقول : انما هما عالمان ، عالم دنيا ، وعالم آخره ، فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة ، علمه مستور ؟ فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا ، لايصدكم بسكره ؟ ثم تلا هذه الآية :

« ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » الآية . تفسير الأحبار : العلماء ، والرهبان : العباد ، ثم قال الفضيل :

ان كثيرا من علمائكم زيه اشبه بزي كسرى وقيصر ، منه بزي محمد صلى الله عليه وسلم ، ان محمدا لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، لكن رفع له علم فسموا اليه .

قال : وسمعت الفضيل يقول :

العلماء كثير والحكماء قليل ، وانما يراد من العلم الحكمة ، فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا .

وقال : لو كان مع علمائنا صبر ماغدوا لأبواب هؤلاء يعني الملوك ، وسمعت رجلا يقول للفضيل :

العلماء ورثة الأنبياء ، فقال الفضيل : العلماء الحكماء ورثة الأنبياء .

وقال رجل للفضيل :

العلماء كثير ، فقال الفضيل : الحكماء قليل .

الفصل الرابع

الفضيل والدعاء

الدعــــاء

ان الدعاء مظهر من مظاهر الخضوع والتواضع والعبودية ، ومن أجل ذلك يكثر الصالحون من الدعاء لأنفسهم ولأهليهم ولأصدقائهم وللمسلمين على وجه العموم ، وهم فى ذلك يستجيبون لله سبحانه فى حثه المؤمنين على الدعاء :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

ويستجيب الفضيل الى القرآن ويتابع أسلافه فى ذلك ، فيروى احاديث عدة فى الدعاء منها : ما رواه الفضيل بسنده عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله كريم حيى ، يكره اذا بســط الرجل يده أن يردها صفرا ليس فيها شيء » .

وروى الفضيل بسنده عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الدعاء هو العبادة لأن الله تعالى يقول :

---

(١) غافر آية : ٦٠

(٢) البقرة آية : ١٨٦

« ادعونى استجب لكم » .

وروى الفضيل بسنده عن ام سلمة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خرج من بيته قال :

« اللهم انى أعوذ بك ان ازل أو أزل ، أو أضل أضل ، او اظلم أو اظلم ، أو أجهل أو يجهل على » .

وروى الفضيل بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : أخذ كعب بيدى ، فقال : خذ منى اثنتين :

« اذا دخلت المسجد فصل على النبى صلى الله عليه وسلم وقل : اللهم افتح لى أبواب الرحمة . واذا خرجت فصل على النبى صلى الله عليه وسلم وقل : اللهم احفظنى من الشيطان » .

وكان الفضيل يتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه ويسير على نسقه صلى الله عليه وسلم فى الدعاء متخذا الرسول أسوة حسنة .

وكان من دعائه :

« اللهم أعزنا بعز الطاعة ، ولا تذلنا بذل المعصية » .

وكان اذا اشتكى يردد :

« رب انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين » .

وكان كثيرا ما يردد : « ارحمنى فانك بى عالم ، ولا تعذبنى فانك على قادر » .

وكان يقول :

« اللهم زهدنا فى الدنيا فانه صلاح قلوبنا وأعمالنا وجميع طلباتنا ونجاح حاجاتنا » .

والدنيا التى يضرع كل الصوفية الى الله ان يزهدهم فيها انما هى الشهوات والاهواء والنزغات وهى ما عبر الله تعالى عنه واصفا لها وصفا دقيقا :

« اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شـديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور (١) » .

ويقول سبحانه :

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

ويقول سبحانه :

« وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون » .

ولعل الأمر لا يلتبس على الناس فى ذلك ، فكل ما كان فسادا أو حثا على الفساد فهو الدنيا ، أما الثراء الطيب ، والكسب الحلال والضرب فى الأرض ، والسعى فيها بالصورة الكريمة التى لا مخالفة فيها للدين ، والتى أخلص الانسان فيها وجهه لله ، فانها مطلوبة ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يضربون فى الارض ويكتسبون المال من حله ، وينفقون منه فى سبيل الله ، ويتصدقون ويبنون المساجد ويساعدون الفقراء والمساكين ، وكل ذلك جهاد فى سبيل الله .

فليس معنى الزهد فى الدنيا ان يكون الانسان عالة على الآخرين أو ان يكون فقيرا . كلا ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

ولقد كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، وسيدنا عثمان من كبار الاثرياء ، وهما من هما ، زهدا ، وتقوى ، وعبادة ، واخلاصا لله سبحانه وتعالى .

---

(١) الحديد آية : ٢٠ .

والعمل فى الاسلام هجرة الى الله ما دام المقصود منه وجه الله سبحانه وتعالى :

« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرى ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورســـوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امراة يتزوجها ، فهجرته الى ماهاجــر اليه » (١) .

وعلى ضوء هذا نفهم موقف الصوفية من الزهد فى الدنيا .

ونعود بعد ذلك الى الفضيل والدعاء ، وان من طريف ما يروى فى ذلك عنه من قوله :

« لو أن لى دعوة مستجابة ما صيرتها الا فى الامام (الحاكم) .

فقيل له : ولم ذلك يا أبا على ؟

فقال : متى ما صيرتها فى نفسى لم تتجاوزنى ، ولكنى اذا صيرتها فى الامام فانه يكون فى ذلك صلاح العباد والبلاد .

فقيل له : وكيف ذلك يا أبا على ، فسر لنا هذا ؟

فقال : أما صلاح البلاد فانه اذا أمن الناس ظلم الامام ، عمروا الخرابات ، ونزلوا فى الارض لاصلاحها .

وأما صلاح العباد فان الحاكم ينظر الى ذوى الجهل فيرى انه قد شغلهم طلب المعيشة عن طلب ما ينفعهم من تعلم القرآن وغيره . فيجمعهم فى دور خمسين خمسين ، أو أقل أو أكثر ، ويعلمهم أمور

---

(١) رواه الامامان البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

دينهم ويعرفهم ان ذلك هو ما يصلحهم ، وينظر الى اصحاب الثراء ويأخذ من زكاتهم ويردها على فقرائهم ، فيكون فى ذلك صـــلاح العباد » اهـ (٢٠)

وكان بمجلس الفضيل حينئذ ابن المبارك العالم الورع ، فسمع ذلك فما ملك ان قام فقبل جبهة الفضيل وقال له فى اعجاب :

« يا معلم الخير من يحسن هذا غيرك » ؟

الفصل الخامس

المحدّث

المحـــدث

لقد توافرت للفضيل مؤهلات المحدث الثقة :

١ ـ لقد كان بفطرته قوى الذاكرة ، ولن يفلح محدث قط اذا لم يكن قوى الذاكرة ، ان ذاكرة المحدث الأصيل آلة تعى وتسجل ولا تنسى ، ولا تخطىء ..

٢ ـ وكان الفضيل بفطرته ذكيا ، وتوافر فيه الذكاء والذاكرة .

٣ ـ ولا يغنى ذلك شيئا بالنسبة للمحدث اذا لم يكن ورعا يتحرج كل التحرج من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان الفضيل ورعا بشهادة كل من اتصلوا به ، وبشهادة هارون الرشيد الذى يقول :

« ما رايت أورع من الفضيل » .

٤ ـ ولابد من العكوف على الحديث دراسة وبحثا وتحريا ، وقد توافر كل ذلك للفضيل .

ـ ولا يتأتى أن يكون القبول العام للمحدث ما لم يتحل بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الصفة الأخيرة هى فى الواقع طابع كل المحدثين الذين كتب الله لهم القبول .. ولقد روى الفضيل فى ذلك من الأحاديث مايدل على طابعه ونزعته :

لقد روى الفضيل ـ بسنده ـ عن على بن طالب قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عبد الله بن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« من كذب على متعمدا بنى الله له بيتا فى النار » .

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله .. انك لأحب الى من نفسى ، وانك لأحب الى من اهلى ، وأحب الى من ولدى ، وانى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر اليك .. واذا ذكرت موتى وموتك عرفت انك اذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وانى اذا دخلت الجنة حسبت أن لا أراك .. فلم يرد اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (١) .

ومن أجل هذه الصفات التى أهل الله الفضيل بها ـ كان ثقة عند المحدثين .

وروى له البخارى ومسلم وبقية المشتغلين بالحديث رضى الله عنهم أجمعين ـ يقول الامام النووى فى تهذيب الأسماء :

« وأجمعوا على توثيقه ، والاحتجاج به ، وصلاحه ، وزهده ، وورعه ، ونحوها من طرائق الآخرة » .

ويقول ابن سعد :

« كان ثقة ، ثبتا ، فاضلا ، ورعا ، عابدا ، كثير الحديث » .

---

(١) النساء : ٦٩ .

ويقول الامام النووى :

« وكان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث » ..

ويقول اسحاق بن ابراهيم الطبرى :

« كان صحيح الحديث ، صدوق اللسان ، شديد الهيبة للحديث اذا حدث » .

وقال ابو حاتم : صدوق .

وقال النسائى : ثقة مأمون .

وقال الدارقطنى : ثقة .

اما الذين اخذ الفضيل عنهم الحديث فكثيرون ، يقول ابن سعد :
« وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث من منصور وغيره » .
ويذكر صاحب « صفة الصفوة » الفضيل فيقول :
أسند عن جماعة من كبار التابعين منهم :

« الأعمش ، ومنصور بن المعتمر ، وعطاء بن السائب ، وحصين ابن عبد الرحمن ، ومسلم الأعور ، وابان بن أبى عياش » .

ومن المعروف ان هؤلاء أدركوا انس بن مالك رضى الله تعالى عنه .. اما سليمان بن الأعمش ، ومنصور بن المعتمر ، فقد ادركا أيضا عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه ..
أما من اخذ عن الفضيل فخلق كثير .. منهم سفيان الثورى :

وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وحسين بن على الجعفى ، ومؤمل بن اسماعيل ، وعبد الله ابن وهب المصرى ، واسد بن موسى ، وثابت بن محمد العابد : ومسدد ، ويحيى بن يحيى النيسابورى ، وقتيبة بن سعيد ، وأشكالهم ونظرائهم .

وكان الفضيل معنيا باهل الحديث ، ناصحا لهم ، موجها لسلوكهم .

لقد رأى مرة قوما من أصحاب الحديث ، يمزحون ويضحكون بصورة تتنافى مع وضع الائمة ، فناداهم :

مهلا : يا ورثة الأنبياء ، مهلا . . ثلاثا . . انكم ائمة يقتدى بكم .

رحم الله الفضيل .. لقد كان كريما على نفسه ، مجاهدا طيلة حياته فى نشر التراث النبوى الشريف .

وفيما يلى نموذج يسير مما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

روى الفضيل عن منصور عن ربعى عن ابى مسعود الانصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان مما ادرك الناس من كلام النبوة : اذا لم تستح فاصنع ما شئت »(١) .

وقال الفضيل : حدثنا منصور بن المعتمر عن ابن شهاب الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت :

« ما رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، ما لم تنتهك محارم الله ، فاذا انتهك من محارم الله شىء ، كان أشدهم فى ذلك غضبا . . وما خير بين امرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثما »(٢) .

---

(١) ثابت مشهور

(٢) ثابت صحيح

وروى الفضيل بسنده عن ابان عن انس عن أبى طلحة قال :

« دفعنا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أطيب شيء نفسا فقلنا له ، فقال : وما يمنعنى .. وانما خرج جبريل عليه السلام آنفا ، فأخبرنى انه من صلى على صلاة كتب الله له عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورد عليه مثل ما قال » (١) .

وروى الفضيل بن عياض ، عن منصور ، عن ابراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة قالت :

« ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ قدموا المدينة من طعام بر ثلاثة أيام ، حتى لحق الله » (٢) .

وروى الفضيل ، عن سفيان بن عيينة ، عن اسماعيل بن أبى خالد ، عن ابن أبى اوفى ، قال :

« دخل النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض عمره مكة ، وهم يرمونه ونحن نستره » (٣) .

وروى الفضيل عن مطرح بن يزيد ، عن عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عرض على ربى بطحاء مكة ذهبا .. فقلت : لا يارب .. ولكن

---

(١) ثابت مشهور

(٢) مشهور

(٣) صحيح ثابت متفق عليه

أجوع يوما ، واشبع يوما ، فاذا شبعت حمدتك وشكرتك ، واذا جعت تضرعت اليك ودعوتك » .

وروى الفضيل ، عن ابي حمزة ، عن ابراهيم ، عن الاسود ، عن عائشة ، قالت :

« ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البر السمراء ثلاث ليال ، حتى مات » .

وروى الفضيل عن هشام بن حسان عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت :

« كان يأتي على آل محمد الشهر ، ما يختبزون » .

وروى الفضيل عن حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال :

« خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وفي يده قطعة من ذهب .. فقال لعبد الله بن عمر :

« ما كان محمد قائلا لربه ، وهذه عنده ؟ .. فقسمها قبل ان يقوم ، ثم قال :

« ما يسرني ان لاصحاب محمد مثل هذا الجبل ، واشار الى احد ـ ذهبا ، فينفقها في سبيل الله ، ويترك منها دينارا » . فقال ابن عباس :

« قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قبض ، ولم يدع دينارا ولا درهما ، ولا عبدا ولا امة .. ولقد ترك درعه مرهونة عند رجل من اليهود بثلاثين صاعا من الشعير ، كان يأكل منه ويطعم عياله » .

وروى الفضيل ، عن جابر ، عن أبى جعفر ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا شرب الماء قال :

« الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا اجاجا بذنوبنا » .

وروى الفضيل ، عن مسلم البزاز ، عن أنس بن مالك قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب العبد ، ويركب الحمار ، ويعود المريض » .

وروى الفضيل ، عن هشام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال :

« قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودرعه رهن عند رجل يهودى بثلاثين صاعا من الشعير ، أخذه طعاما لأهله » (١) .

وروى الفضيل ، عن سفيان الثورى ، عن عبد الله بن السائب من زادان ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لله ملائكة سياحون فى الأرض ، يبلغونى عن امتى السلام » .

عن المؤمن :

وروى الفضيل ، عن ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ان ماشيته نفعك ، وان شاورته نفعك ، وان شاركته نفعك ، وكل شيء من أمره منفعة » .

---

(١) مشهور من حديث عكرمة

وروى الفضيل بن عياض ، عن العلاء بن المسيب ، عن ابيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال :

« ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله عز وجل ، فمن كانت راحته في لقاء الله ، فكأن قد » .

في الورع :

وروى الفضيل وابن عيينة ، عن مجالد وزكريا ، عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ـ وأومأ(١) النعمان بأصبعه الى اذنيه ـ :

« الا ان الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما امور مشتبهات .. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرتع حول الحمى ، يوشك أن يرتع في الحمى .. الا وان لكل ملك حمى ، وان حمى الله محارمه .. الا وان في الجسد مضغة .. اذا صلحت وطابت صلح لها الجسد وطاب ، وان سقمت وفسدت ، سقم الجسد كله وفسد ، وهي القلب » .

وروى الفضيل ، عن يحيى بن عبيد الله ، عن ابيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ايتها الأمة .. اني لا اخاف عليكم فيما لا تعلمون .. ولكن انظروا كيف تعملون فيما تعلمون » .

في رؤية الله تعالى :

وروى الفضيل عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن عيسى بن أبي حازم عن جرير ، قال :

---

(١) اشار

(٢) صحيح ثابت

« كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اذ نظر الى القمر ليلة البدر ، فقال : أما انكم سترون ربكم يوم القيامة ، كما ترون هذا القمر ـ وأشار الى القمر بالسبابة ـ لاتضامون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا .. ثم قرأ :

« وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ».. الآية .. » (١) .

فى الصلاة :

وروى الفضيل عن سليمان بن مهران ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ليس بين الكفر والايمان الا ترك الصلاة (٢) » .

وروى الفضيل عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن أبى معمر عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لاتجزىء صلاة لايقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود » (٣) .

وروى الفضيل عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الملائكة تصلى على احدكم ما دام فى مصلاة مالم يحدث : اللهم اغفر له .. اللهم ارحمه .. وأحدكم فى الصلاة ماكانت الصلاة تحبسه » (٤) .

---

(١) صحيح متفق عليه

(٢ ، ٣) ثابت مشهور من حديث جابر

(٤) مشهور من حديث المسيب بن رافع

وروى الفضيل بسنده عن اشعث بن سوار ، عن الحسن ، عن عثمان بن ابى العاص قال :

« آخر ما عهد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« صل بأصحابك صلاة أضعفهم ، فان فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة ، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا » (١) .

وروى الفضيل ، عن زياد بن سعد ، عن عمرو بن دينار : عن عطاء بن يسار ، عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا أقيمت الصلاة فلا صلاة الا المكتوبة » .

وروى الفضيل ، عن منصور ، عن شقيق ، عن مسروق قال : قالت عائشة :

« ما سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الا وهو يتعوذ من عذاب القبر » (٢) .

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم الطائى ، عن جابر بن سمرة قال :

« خرج الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

الا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟

قالوا : يارسول الله .. كيف تصف الملائكة ؟ ...

قال : يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون فى الصف » (٣) .

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن ابى صالح ، عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ثابت مشهور من حديث الحسن

(٢) ثابت مشهور

(٣) مشهور من حديث المسيب بن رافع

« الامام ضامن ، والمؤذن أمين ، أرشد الله الأئمة ، وأعان المؤذنين » (١) .

وحدث الفضيل عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » (٢) .

وحدث الفضيل عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أبي سعيد الخدري قال :

« رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في ثوب واحد متوشحا به » .

في الحج :

وروى الفضيل عن منصور عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم أمه) (٣) .

وروى الفضيل عن عطاء بن السائب عن طاوس عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« الطواف بالبيت صلاة ، الا أن الله أحل فيه المنطق ، فمن نطق فلا ينطق الا بخير » .

في الأضحية :

وحدث الفضيل ، عن منصور ، عن الشعبي ، عن البراء ابن عازب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« من ذبح قبل الصلاة فليعد الذبح » .

---

(١) رواه الجم الغفير عن الأعمش

(٢) صحيح ثابت من حديث صفوان

(٣) صحيح متفق عليه

في الجهـاد :

وروى الفضيل عن سليمان بن مهران عن أبى عمرو الشيبانى عن ابن مسعود قال :

« جاء رجل بناقة مخطومه فقال : يارسول الله .. هذه الناقة فى سبيل الله .. قال : لك بها سبعمائة ناقة مخطومة فى الجنة»(١)

وروى الفضيل عن حصين بن عبد الرحمن عن الشعبى ، أن عروة البارقى حدثهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة .. قيل : وما ذاك ؟ .. قال : الأجر والمغنم » (٢) .

وقال الفضيل : حدثنا مالك بن انس ، عن الزهرى ، عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل مكة يوم الفتح ، وعلى رأسه مغفر » (٣) .

حق الله وحق العباد :

وروى الفضيل عن سليمان الأعمش عن أبى سفيان عن أنس قال :

« اتانا معاذ بن جبل .. فقلت : حدثنا من طرائف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال :

« كنت رديفه فقال : يامعاذ .. ما حق الله على العباد ؟ ..

قلت : الله ورسوله اعلم .

قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .

قلت : فما حق العباد اذا فعلوا ذلك ؟ ..

قال : حقهم عليه أن لايعذبهم (٤) .

---

(١) مشهور من حديث الاعمش ، ثابت حدث به عن الفضيل جماعة

(٢) مشهور من حديث الشعبى رواه عنه جماعة

(٣) ثابت صحيح من حديث مالك رواه عنه الجم الغفير .. والمغفر : بيضة الحديد او (الخوذة)

(٤) صحيح ثابت من حديث انس عن معاذ

فى الأخلاق :

وروى الفضيل ـ بسنده ـ عن عبد الله بن مسعود قال :

« انى لأخبر بمكانكم فما يمنعنى أن أخرج اليكم الا مخافة أن أملكم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا » (١) .

وقال الفضيل : حدثنا محمد بن ثور الصنعانى ، عن معمر ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله تعالى كريم يحب الكرم ومعالى الأخلاق . ويبغض سفسافها » .

وروى الفضيل بن عياض ، عن سليمان ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (٢) .

وحدث الفضيل : عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن جرير بن عبد الله البجلى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من لايرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل » (٣) .

---

(١) صحيح ثابت من حديث منصور والاعمش

(٢) مشهور من حديث الاعمش

(٣) هذا حديث صحيح ثابت

وروى الفضيل ، عن محمد بن الزبير ، عن الاسود بن سريع قال : سمعت سلمان الفارسى يقول :

« انما تهلك هذه الأمة من قبل نقض مواثيقها » .

وروى الفضيل بن عياض ، عن منصور بن المعتمر ، عن شقيق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » (١) .

وروى الفضيل ، عن الحسن بن عبيد الله ، عن ربعى بن حراش قال : قال حذيفة :

« ان آخر ما أدركنا من النبوة ، اذا لم تستح فافعل ماشئت » (٢) .

وروى الفضيل ، عن أبى هارون العبدى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من أطعم مسلما جائعا اطعمه الله من ثمار الجنة » .

وحدث الفضيل ، عن سليمان ، عن أبى سفيان ، عن جابر قال :

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فهاجت ريح منتنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان ناسا من المنافقين اغتابوا ناسا من المؤمنين ، — وقال مسدد من المسلمين — فلذلك هاجت هذه الريح — وقال مسدد : فبعثت هذه الريح لذلك » (٣) .

وروى الفضيل ، عن منصور ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) صحيح ثابت متفق عليه
(٢) صحيح ثابت من حديث ربعى عن أبى مسعود عقبة بن عمرو
(٣) مشهور من حديث فضيل عن الاعمش

« لا هجرة فوق ثلاثة أيام ، من هجر فوق ثلاث فمات دخل النار » (١)

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن ابى صالح ، عن ابى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انظروا الى من هو اسفل منكم ، ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فانه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ».

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن المعرور بن سويد ، عن ابى ذر قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد فقال :

« أنظر اى رجل يرى فى عينيك ارفع » ؟

فنظرت ، فاذا رجل عليه حلة وحوله ناس ، فقلت : هذا ...

قال : « انظر اى رجل يرى أدنى فى عينيك » ؟..

فنظرت ، فاذا رجل عليه كساء ، فقلت : هذا ..

قال : هذا خير عند الله عز وجل يوم القيامة من قراب الأرض مثل هذا » (٢)

وروى الفضيل ، عن فطر بن خليفة ، عن حماد ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ليس المكافىء بالمواصل ، ولكن المواصل من اذا قطعت رحمه وصلها » .

وحدث الفضيل بن عياض ، عن سليمان بن مهران الكاهلى ، عن مسلم بن صبيح ، عن مسروق بن الأجدع قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) صحيح من حديث منصور حدث به الثورى وغيره

(٢) ثابت مشهور من حديث الاعمش

« المصائب والأمراض والأحزان فى الدنيا جزاء » (١) ..

وروى الفضيل بن عياض ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن أبى موسى الأشعرى ، يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ان ابليس يبعث جنوده كل صباح ومساء ، فيقول :

من اضل رجلا اكرمته . ومن فعل كذا فله كذا .. فيأتى أحدهم فيقول :

لم ازل به حتى طلق امرأته .. قال . يتزوج أخرى .. فيقول :

لم أزل به حتى زنى . فيجيزه ويكرمه .. ويقول : لمثل هذا فاعملوا ..

ويأتى آخر فيقول : لم أزل بفلان حتى قتل .. فيصيح صيحة يجتمع اليه الجن . فيقولون له : يا سيدنا ما الذى فرحك ؟.. فيقول : أحد بنى فلان .. انه لم يزل برجل من بنى آدم يفتنه ويصده ، حتى قتل رجلا فدخل النار .. فيجيزه ويكرمه كرامة لم يكرم بها أحدا من جنوده ، ثم يدعو بالتاج فيضعه على رأسه ويستعمله عليهم » .

فى البداية والنهاية

وروى الفضيل ـ بسنده ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال :

« ان أحدكم يجمع فى بطن أمه اربعين يوما ، ثم علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ، فيؤمر بأربعة : برزقه ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . فوالله ان أحدكم أو الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها

(١) عزيز من حديث فضيل

غير ذراع أو باع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . وان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع او ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ..

وحدث الفضيل ، عن الأعمش ، عن ابى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استعيذوا بالله من عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » .

وحدث الفضيل بن عياض ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاث يقول :

« لا يموتن احد منكم الا وهو يحسن بالله الظن » (١)

وروى الفضيل ، عن منصور ، عن خيثمة قال :

قيل لعبد الله بن عمرو ، ان ابن مسعود يقول :

« ان الرجل ليسبح فى عرقه حتى يبلغ انفه » .. فقال عبد الله ابن عمرو :

« ان للمؤمنين كراس من لؤلؤ يجلسون عليها ، ويظلل عليهم بالغمام ، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهار ، أو كأحد طرفيه » .

وروى الفضيل عن سليمان الشيبانى وبيان بن بشر ، عن قيس ابن ابى حازم ، عن المستورد بن راشد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما الدنيا فى الآخرة الا كما يجعل احدكم اصبعه فى اليم ، فلينظر بم يرجع » .

---

(١) ثابت مشهور من حديث جابر

وروى الفضيل بن عياض ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما حق امرىء مسلم له شيء يوصى فيه ، ان يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده » (١)

وروى الفضيل ، عن الأعمش ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منه بثلاث :

شقاء لا ينفد ، وحرص لا يبلغ عناه ، وأمل لا يبلغ منتهاه ، والدنيا طالبة ومطلوبة .. فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة .. ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا ، حتى يستوفى منها رزقه » .

---

(١) صحيح من حديث عبيد الله

الفصل السادس

الإيمــان

ان الايمان يثمر ـ اذا كان صادقا قويا ـ الاخلاق الكريمة ..

والاخلاق الكريمة عنصر من اهم عناصر التصوف ، ولا يوجد تصوف ما لم يكن الاساس الخلق الكريم ..

ولقد حبب الله الايمان الى الفضيل ، وزينه فى قلبه ، وكره اليه الكفر والفسوق والعصيان ، فكان من الراشدين ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ..

لقد كانت الاخلاق الكريمة امتدادا لايمانه ، وكان تصوفه كأنه امتداد لاخلاقه الكريمة ..

ومن اجل ذلك .. كتبنا عن هذه الامور على التوالى : الايمان ـ الاخلاق ـ التصوف .

الايمـــان

وعن الايمان يروى الفضيل ـ بسنده ـ عدة احاديث .. منها :

ما رواه عن الاعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« شكى نبى من الأنبياء الى ربه عز وجل فقال :

يا رب : يكون العبد من عبيدك ، يؤمن بك ويعمل بطاعتك ، فتزوى عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء .. ويكون العبد من عبيدك .. يكفر بك ، ويعمل بمعاصيك ، فتزوى عنه البلاء ، وتعرض له الدنيا .. فأوحى الله عز وجل اليه :

« ان العباد والبلاد لى ، وانه ليس من شىء الا وهو يسبحنى ويكبرنى ويهللنى .. اما عبدى المؤمن فله سيئات فأزوى عنه الدنيا ، واعرض له البلاء ، حتى يأتينى فأجزيه بحسناته .. واما عبدى الكافر فله حسنات ، فأزوى عنه البلاء ، واعرض له الدنيا ، حتى يأتينى فأجزيه بسيئاته » ..

ومنها ما رواه ـ بسنده ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد ذلك » .

وهذا الحديث ثابت وصحيح من حديث الأعمش ، رواه عنه الأئمة ..

ومنها ما رواه فضيل ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن انس ابن مالك قال :

« كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول :

« يا مقلب القلوب : ثبت قلوبنا على دينك » ..

قالوا : يا رسول الله . تخاف علينا وقد آمنا بك ؟

قال : ما من قلب الا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن .. فان شاء أقامه ، وان شاء أزاغه » ..

ومنها ما رواه الفضيل ، عن منصور ، عن ربعى ، عن حذيفة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« كان رجل يسيء الظن بعمله .. فقال لأهله :

اذا أنا مت فاحرقونى ، ثم اطحنونى ، ثم ذرونى فى البحر فى يوم عاصف ، فان ربى ان قدر على لم يغفر لى .. فلما مات فعلوا به ذلك ، فجمعه الله عز وجل ، فقال : ما حملك على الذى فعلت ؟ قال : ما حملنى الا مخافتك .. فغفر له » (1) .

---

(1) روى البخارى نحوه

والفضيل يتحدث عن كثير من زوايا الايمان ، ونورد فيما يلى بعض ذلك :

استكمال الايمان :

عن ابراهيم بن الأشعث قال :

« سمعت الفضيل يقول : يا سفيه ما أجهلك .. الا ترضى أن تقول أنا مؤمن ، حتى تقول أنا مستكمل الايمان ؟..

لا .. والله لا يستكمل العبد الايمان حتى يؤدى ما افترض الله تعالى عليه ، ويجتنب ما حرم الله تعالى عليه ، ويرضى بما قسم الله تعالى له ، ثم يخاف مع ذلك ان لا يتقبل منه » ..

من صفات المؤمن :

عن محمد بن أحمد بن يزيد ومحمد بن جعفر قالا :

حدثنا اسماعيل بن يزيد ، حدثنا ابراهيم بن الاشعث ، قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« الغبطة من الايمان ، والحسد من النفاق ، والمؤمن يغبط ولا يحسد .. والمنافق يحسد ولا يغبط ، والمؤمن يستر ويعظ وينصح ، والفاجر يهتك ويعير ويفشى ».

قال : وسمعت الفضيل يقول :

« وعزته لو أدخلنى النار ، فصرت فيها ، ما يئسته » ..

وقال : سمعت فضيلا يقول :

« كان يقال : من اخلاق الانبياء ، والأصفياء الاخيار الطاهرة قلوبهم ، خلائق ثلاثة :

الحلم ، والأناة ، وحظ من قيام الليل » ..

المؤمن صادق :

يقول الفضيل :

« عامل الله بالصدق فى السر ، فان الرفيع من رفعه الله .. واذا احب الله عبدا اسكن محبته فى قلوب خلقه » ...

خوف الله :

« من خاف الله لم يضره شيء ، ومن خاف غيره لم ينفعه شيء »

المؤمن لا ييأس :

« وعزته وجلاله ، لو ادخلني النار وصرت فيها ما ايست منه »

المؤمن لا يشكو :

عن خلف بن الوليد يقول :

« جاء رجل الى فضيل يشكو اليه الحاجة ، فقال له :

« أمدبرا غير الله تريد ؟.. »

المؤمن لا يكون مغموما :

ورأى الفضيل رجلا مغموما فقال :

« اتخشى أن يكون لك رزق لا تستوفيه ؟ » قال : لا .. قال : « فتخشى أن يكون غير ما شاء الله » ؟.. قال . لا .. قال . فلأى شيء غمك ؟..

المؤمن لا تستعبده الدنيا :

عن عبد الله بن محمد قال : حدثنا احمد بن الحسين بن ابراهيم ، حدثنا الفيض بن اسحاق ، قال : سمعت الفضيل يقول :

« لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتى يعد البلاء نعمة ، والرخاء

مصيبة ، وحتى لا يبالى من أكل الدنيا ، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادة الله عز وجل » ..

عن الحسين بن زياد المروزى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« حرام على قلوبكم أن تصيبوا حلاوة الايمان حتى تزهدوا فى الدنيا » ..

هيبة الخلق للمؤمن :

يقول الفضيل :

« يهابك الخلق على قدر هيبتك لله » ..

المؤمن والمنافق :

عن ابراهيم بن الأشعث قال : سمعت فضيل بن عياض يقول :

« المؤمن قليل الكلام ، كثير العمل .. والمنافق كثير الكلام ، قليل العمل .. كلام المؤمن حكم ، وصمته تفكر ، ونظره عبرة ، وعمله بر ، واذا كنت كذا .. لم تزل فى عبادة » ..

الفصل السابع

الأخلاق

الأخلاق

ان البحث في الاخلاق : انما هو البحث عن سعادة الانسان التى يسعى اليها بسلوكه ..

وغاية الاخلاق ــ اذن ــ انما هى البحث عن السعادة :

البحث عنها من حيث ماهيتها وتحديدها ..

فاذا ما حددت السعادة ، اتجه الباحث الى تحديد امرين : احدهما : الوسيلة التى تؤدى اليها .. الوسيلة الملائمة التى تصل بالانسان خطوة الى السعادة ..

والثاني : هو التعريف بما يتنافى مع السعادة ، من اجل ان يتحاشاه الانسان ..

والكاتبون عن الأخلاق ، فى شرقنا العربى وفى محيطنا الاسلامى ، ينهجون فى ذلك النهج الأوربى ، فيبدءون بالكتابة عن مذهب سقراط فى السعادة ، محددين لها عنده ، وشارحين الطريق الذى يراه فى الوصول اليها ، والطريق الذى يراه فيما يتنافى معها ، ثم يشرحون مذهب افلاطون ، ويتسلسلون مع الفلاسفة العقليين الى ان يصلوا الى الاسلام ، فيترك بعضهم الحديث عنه ويتجاوزه الى النهضة الحديثة فى اوربا ..

وبعضهم يتحدث عن الاخلاق فى الاسلام فلا يتجه الى الكتاب والسنة ، وانما يتجه الى بعض الفلاسفة العقليين فى الجو الاسلامى الذين ساروا على النهج اليونانى ، فيتحدث عن مذاهبهم العقلية فى بحثهم عن السعادة ..

وهؤلاء الفلاسفة المسلمون ، الذين نهجوا النهج اليونانى ، لا يمثلون الاسلام ، وانما يمثلون عقولهم البشرية .

والفلاسفة العقليون — قديما وحديثا — انما يمثلون — دائما — عقولهم الفردية البشرية — ومن اجل ذلك اختلفوا وتعارضوا وتضاربوا ، ولم يصلوا الى اتفاق فيما يتعلق بتحديد السعادة ، ولا فيما يتعلق بوسائل الوصول اليها ، ولا فيما يتعلق بالوسائل التى تتنافى معها .. ونتج عن ذلك مذاهب فى الاخلاق بعدد من نبغ من الفلاسفة .

ولا تكاد تجد من يتجه الى الجو الاسلامى البحت : جو الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، وسلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ..

وقبل أن نصل الى شىء من البيان عن رأى الفضيل فى الاخلاق ، نحب بتوفيق الله أن نتحدث — فى ايجاز ويسر — عن الجو الاسلامى فيما يتعلق بالسعادة ..

ان من رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه ، ان يرسم لهم سبيل السعادة فى دنياهم وفى أخراهم .. وهو طريق لا استحالة فيه ، ولا مشقة حقيقية .. وقد جربه الكثيرون ففازوا بالسعادتين :

لقد اسعدوا فى هذه الحياة الدنيا : لقد غمرهم الرضا واحاط بهم الاطمئنان ، ولفتهم اردية السعادة .

ولقد ضمن الله لهم حياة هنيئة فى الآخرة : يظلهم بظله يوم لا ظل الا ظله ، ويكفل لهم عدم الخزى حين يعم الخزى كثيرا من

الخلائق ، ويدخلهم الجنة برحمته ، ويريهم وجهه الكريم تفضلا منه سبحانه ..

هذه السعادة فى الدنيا والآخرة وعد الله بتحقيقها لكل من توافر فيه شرطان :

الأول : الايمان ..

الثانى : العمل الصالح ..

يقول سبحانه :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

لقد وعد الله بتحقيق الحياة الطيبة فى هذه الآية الكريمة لكل فرد تحقق فيه الشرطان .. ونص الله سبحانه فيها على الأنثى .. وسوى بين الذكر والانثى .. وفى ذلك دعوة صريحة أو ضمنية للنساء الى القيام بالعمل الصالح ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، مثلهن فى ذلك مثل الرجال سواء بسواء ، وذلك حتى تعم السعادة جميع افراد الأسرة ..

وذكر الله سبحانه ثمرة تحقيق هذين الشرطين فى صورة من التأكيد المؤكد ، وهى : الحياة الطيبة فى هذه الدنيا .. والحياة الطيبة انما هى السعادة ..

ثم بين سبحانه ــ أيضا ــ فى صورة من التأكيد المؤكد ، انه سيجزيهم فى الآخرة ، وان جزاءهم سوف لا يكون على مستوى متوسط أعمالهم ، وانما سيكون بأحسن ما كانوا يعملون ..

هذه السعادة تتحقق للفرد باعتباره فردا . اذا حقق ما اشترطه الله سبحانه .. وتتحقق للأسرة باعتبارها اسرة .. اذا تكاتف

أفرادها متعاونين متضامنين على توفير الشرطين .. يرى كل من أفرادها أنه مسئول عن نفسه وعن الآخرين ، فيتناصحون من أجل سعادتهم ..

ألم تر الى سيدنا إسماعيل ؟.. لقد كان في نفسه صادق الوعد أى انه صدق مع الله فى عهد الايمان والعمل الصالح ..

ولقد كان ـ بالنسبة لأسرته ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة .. ومن أجل ذلك : كان عند ربه مرضيا ..

وبعد :

فان هذا قانون الهى عام : ليس خاصا بسيدنا اسماعيل ، ولا بفرد معين ، وانما هو شامل لكل من انضوى تحت لواء الايمان والعمل الصالح ..

وقد بين الله سبحانه ، عمومه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وبين سبحانه أنه كما يشمل الفرد ، وكما يشمل الأسرة ، فانه يشمل ايضا المجتمع ..

فالمجتمع الذى يحقق الشرطين يصل الى السعادة ..

* * *

وسواء أكنا بصدد الايمان ، أو بصدد العمل الصالح ، فانه لابد من الاخلاص ... وللاخلاص فى الجو الاسلامى مكانته الكبرى ..

فعن أنس بن مالك ـ فيما رواه الحاكم وصححه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » ..

والواقع : ان الاخلاص فى العمل ، وفى السلوك ، وفى الحياة على وجه العموم .. اصل من اصول الدين الاسلامى ، لا يستقيم الدين الا به .. حتى لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الايمان ، فقال – فيما رواه البيهقى – : « الايمان هو الاخلاص » ..

والاخلاص المقصود : هو الاخلاص لله .. أى أن يكون الله وحده هو المقصود بالعمل ..

ومثل ذلك : ان العامل مثلا يتقن عمله ، ولو لم يكن هناك من رؤسائه من يحاسبه على عدم اتقانه .. والتاجر يصدق ولو لم يكن من مواد القانون ما يعاقبه على عدم صدقه .. والمصلى يقيم الصلاة ولو لم يكن هناك من ينظر اليه مصليا – وهكذا يراعى كل انسان الله وحده فى عمله .. فيصبح العمل – حتى ما كان منه مغرقا فى مظهره الدنيوى – عبادة يثاب عليها الانسان ..

روى الامام مسلم رضى الله عنه ، عن أبى ذر رضى الله عنه ، ان ناسا قالوا : « يا رسول الله .. ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى .. ويصومون كما نصوم .. ويتصدقون بفضول اموالهم » ..

قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ ... ان بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة .. وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع احدكم صدقة ..

قالوا : يا رسول الله ! .. أيأتي احدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟

قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام .. أكان عليه وزر ؟ .. فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر ..

والأساس الذى تقوم عليه الأعمال من حيث كونها عبادة ، ومن حيث الثواب عليها ، هو النية .. يقول صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخارى - :

« انما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى .. فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله .. ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليه » ..

ان هجرة الانسان بعمله الى الله - أى ارادته بعمله وجه الله - يجعل من عمله عبادة ، يؤجر عليها ويثاب .. أما من كانت هجرته بعمله - أى ارادته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته - أى عمله - انما هو عمل دنيوى لا أجر عليه ولا ثواب .. حتى ولو كان العمل يتفق فى مظهره مع الأعمال الصالحة ..

ولقد هاجم الاسلام - فى عنف عنيف - كل مظهر لا يراد به وجه الله .. وكل عمل مصدره الرياء والزلفى وحب الشهرة ، وطلب ارضاء البشر دون مراعاة الله سبحانه ..

روى البزار والبيهقى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه ، أن الله تبارك وتعالى يقول :

« أنا خير شريك .. فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى .. يا أيها الناس ، أخلصوا أعمالكم .. فان الله تعالى لا يقبل من الأعمال الا ما خلص له .. ولا تقولوا : هذه لله وللرحم .. فانها للرحم ،

وليس لله فيها شيء .. ولا تقولوا : هــذه لله ولوجوهكم .. فانهــا لوجوهكم ، وليس لله منها شيء » ..

واحاديث رسول الله صلى الله عليه وســلم فى هذا المعنى كثيرة .. والقرآن الكريم مصرح فى كثير من آياته بأن العمــل الذى يثـاب عليه الانسان ، انما هو العمل الذى اخلص صاحبه فيه .. : .. اى ان يكون العبــد ــ كما يقول ابو ســعيد الخراز ــ لا يرجو الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يتزين الا لله ، ولا يأخذه فى الله لومة لائم ...

وبعد : فان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ــ فيما يرويه الإمام مسلم ــ عن ابى هريرة رضى الله عنه :

« ان الله لا ينظر الى أجسامكم ، ولا الى صوركم .. ولكن ينظر الى قلوبكم » ..

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد ارساله الى اليمن :

يا رسول الله .. اوصنى ...

فقال صلى الله عليه وسلم :

« اخلص دينك يكفك العمل القليل »

ولن يتوفر الاخلاص ، ما لم يتجــه الانســان الى الله بالتوبة الخالصة النصوح .. والتوبة لها مكانة سامية فى الاســلام .. وهى تستتبع العمل لا محالة .. اذا كانت صادقة .. ان لها شأنهــا فى الاســلام ..

ولقد مر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه على رجل يذكر الناس بالله ويشتد فى الترهيب من عــذاب الله وعقــابه ، ويستفيض حتى ليوشك ان يقنط الناس من رحمة الله .. فقال له :

يا مذكر : لم تقنط الناس من رحمة الله ؟ ثم قرأ :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » ..

وهذه الآية الكريمة التى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها :

« ما احب ان لى الدنيا وما فيها بهذه الآية » .

هى ابتداء ثمان آيات تحدد جانبا من الصلة بين الله وعباده .. انها تفتح باب رحمة الله على مصراعيه ..

ثم تتلوها آية تحدد الكيفية التى ينال بها الانسان رحمة الله ومغفرته ، يقول سبحانه :

« وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » . وبهذه الآية الكريمة أصبح الامر واضحا ..

فباب رحمة الله مفتوح للتائبين المخلصين الصادقين فى توبتهم .

انه مفتوح لهؤلاء الذين تصل بهم توبتهم الى أن يسلموا له وجههم ، فيصبحوا من عباده المخلصين ..

وتحدد الآية الثالثة ، كيفية اسلام الوجه لله الذى هو ثمرة التوبة الصادقة ، فتقول :

« واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم ، من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة ، وانتم لا تشعرون » ..

فاتباع أحسن ما أنزل الله ، هو الثمرة التى تثمرها التوبة ..

ان التوبة تضع الانسان فى مرتبة البراءة .. انها تمحو السيئات لتجعل صحيفة الانسان بيضاء صافية طاهرة .. وهى مرتبة عظيمة فى موازين الدين .. ولابد بعد ذلك من ملء الصحيفة بالصالحات من الأعمال ، وذلك باتباع ما انزل الله ..

ثم يبين الله سبحانه وتعالى فى الآيات الثلاث التى تتلو .. بعض ما عسى أن يتمحله فى الآخرة من معاذير بعض من لم يتوبوا ...

ما عساهم ان يقولوا ؟ ...»

« ان تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين ، او تقول لو ان الله هدانى لكنت من المتقين .. او تقول حين ترى العذاب لو ان لى كرة فاكون من المحسنين » (١) ..

ان هذه كلها معاذير لا تجدى ولا تفيد .. فالله سبحانه وتعالى يرد عليها جميعا فى قوة قائلا :

« بلى : قد جاءتك آياتى فكذبت بهـا واستكبرت وكنت من الكافرين » (٢) ..

ثم يبين الله سبحانه العاقبة التى تنتظر المكذبين والمنافقين والكافرين وكل من انحرف عن صراط الله المستقيم ، فيقول سبحانه :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .. اليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » (٣) ..

واذا كان هذا فى شان المنحرفين ، فان الله سبحانه وتعالى يبين مصير الذين استجابوا لدعوته وندائه :

« وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » (٤) ..

اما بعد : فان الخطوة الاولى فى الطريق الى الله ، انما هى التوبة الخالصة النصوح والتوبة خطوة تفصل دائما بين عهدين .. وهى اول ما يستقبل به الانسان حياته الجديدة ..

ومن اجل ذلك يقول الشرع : ان التوبة تجب ما قبلها .. أى تمحوه وتزيله ..

انها ابتداء لحياة الطهر والصفاء ، وحياة الاستجابة لله .. واذا

---

(١) و ٢ و ٣ و ٤ : الزمر : ٥٣ – ٦١

استجاب الانسان لله ورسوله ، باعد الله بينه وبين الخوف والحزن ، ومنحه الرضا والسعادة فى الدنيا والآخرة ..

* * *

وما من شك فى ان طريق السعادة هو طريق الفلاح ..

انهما يلتقيان أساسا وغاية ، ويكونان وحدة متحدة .. والله تعالى برسمه طريق الفلاح يرسم فى الوقت نفسه طريق السعادة .. وبرسمه طريق السعادة يرسم طريق الفلاح ..

ولقد رسم الله سبحانه فى آياته الكريمة طريق الفلاح ، قال تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » (١) ..

والركوع والسجود علامتا الخضوع لله سبحانه ، والتواضع له .. انهما العلامتان الظاهرتان .. ويجب أن تصحبهما علامة باطنية هى خضوع القلب ، أو سجود القلب .. وسجود القلب ظاهرة يجرى وراء تحقيقها الصالحون كغاية سامية فى أعراف المتقين .. وان التعبير الجارى الذى يقول : « من تواضع لله رفعه » .. انما يعنى على الخصوص هذا الذى تواضع لله سبحانه بقلبه ، وهو يجارى قوله صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الامام مسلم – عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عليك بكثرة السجود ، فانك لن تسجد لله سجدة ، الا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » ..

وذلك كله متابعة لقول الله تعالى :

« واسجد ، واقترب » ..

---

(١) الحج ، ٧٧

اى تواضع لله سبحانه ، واخشع له ، واخضع ، فان ذلك وسيلة القرب منه سبحانه ، والقرب من الله هو منتهى الرفعة للانسان ..

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ..

وينصح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو الانسان ربه وهو فى هذه الدرجة من القرب ، قائلا :

« فادعوا فى سجودكم ، فقمن أن يستجاب لكم » ..

والسجود الذى يريده الله ورسوله ، هو على الخصوص المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه الشعور القلبى الروحى بجلال الله وعظمته ، والذى تصوره هذه الشارة المعروفة من وضع الجبهة على الأرض : تمثل الخضوع لجلال الله وعظمته ، والانقيـــاد المطلق لحكمته الرحيمة ، وعظمته الحكيمـــة ، ووده القريب ، وتقربه ممن تقرب اليه ..

ومن الأحاديث ذات المغزى العميق فى هـــذا : ما رواه الامـــام مسلم ــ بسنده ــ عن ابى فراس الأسلمى ــ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اهل الصفة رضى الله عنه ــ قال :

« كنت ابيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال : سلنى ... فقلت : اسألك مرافقتك فى الجنة ..

قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ..

قال : اعنى على نفسك بكثرة السجود ..

والسجود ــ اذن ــ تعبير عن التطامن لله سبحانه ، وعن الخشية والخضوع ــ وهو من أجل ذلك سبيل الى الجنة .. فما دام الانسان يخشى الله ، فانه يقوم بالواجبـــات والفروض ، وينتهى عما نهى الله عنـــه ، وذلك هو التقـــوى .. وذلك هو معنى العبودية التى امر الله

سبحانه وتعالى بها كثيرا فى القرآن ، وامر بها فى الآية التى نحن بصددها ، فقال : « واعبدوا ربكم » ..

واذا ما خشى الانسان ربه ، فانه ــ لا محالة ــ فاعل للخير ، وذلك ان التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، هو الخير كل الخير ..

فاذا ما حقق الانسان السجود لله بمعناه الصحيح ، كان قد حقق سلوك طريق الفلاح فى الدنيا ، وسلوك طريق الفلاح فيما يتعلق بالآخرة ..

اما فى الدنيا : فان الله سبحانه قد تكفل بمن سجد له متمثلا العبودية .. يقول سبحانه :

« أليس الله بكاف عبده » ؟ .. ويقول :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ،ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .. ويقول تعالى ــ فى عموم وشمول ــ عن الذين آمنوا وكانوا يتقون :

« الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم » .. هذه هى السعادة فى الجو الاسلامى .. انها الايمان والعمل ــ وطريقها يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح ، وليس له دون الله منتهى .. يقول تعالى :

« وأن الى ربك المنتهى » ..

فمن سار فى هذا الطريق انتهى به الأمر الى السعادة ..

ولقد اخذ الفضيل يحث الناس بقوله وسلوكه الى هذا الطريق .. وفيما يلى كلمات ترشد الى الروح الايمانية التى كان يحاول توجيه الناس اليها :

عن محمد بن زنبور قال : سمعت الفضيل يقول :

« رهبة العبد من الله عز وجل على قدر علمه ، ورهبته من الدنيا على قدر رغبته فى الآخرة » ..

وقال الفضيل لسفيان بن عيينة :

« ويل لك إن لم يعف عنك .. اذا كنت تزعم انك تعرفه ، وانت تعمل لغيره » ..

وعن عبد الصمد قال : سمعت الفضيل يقول :

« عاملوا الله عز وجل بالصدق فى السر ، فان الرفيع من رفعه الله .. واذا أحب الله عبدا أسكن محبته فى قلوب العباد » ..

وعن محمد بن قطن قال : قال الفضيل بن عياض :

« انما يهابك الخلق على قدر هيبتك لله » ..

وعن هناد بن السرى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، الا نادى الجليل جل جلاله :

من أعظم مني جودا ، والخلائق لي عاصون ، وأنا لهم مراقب .. اكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ..

من بيني وبينهم : اجود بالفضل على العاصي ، واتفضل على المسيء ..

من ذا الذى دعاني فلم أسمع اليه ؟ .. ومن ذا الذى سألني فلم أعطه ؟ .. أم من ذا الذى اناخ ببابي ونحيته ؟ .. انا الفضل ومني الفضل .. أنا الجود ومني الجود ، أنا الكريم ومني الكرم ، ومن كرمي أن أغفر للعاصي بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني .. فأين عني تهرب الخلائق ؟ .. وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟ ..

وعن الفيض بن اسحاق قال : سمعت فضيلا يقول :

« ليست الدار دار اقامة ، وانما اهبط آدم اليهـا عقوبة .. الا ترى كيف يزويها عن المؤمن ، ويمررها عليه بالجوع مرة ، وبالعرى مرة ، وبالحاجة مرة ، كما تصنع الوالدة الشفيقة بولدها ، تسقيه مرة حضيضا ، ومرة صبرا ، وانما تريد بذلك ما هو خير له ؟ » ..

قال : وقال لى الفضيل :

« تريد الجنة مع النبيين والصديقين ، وتريد أن تقف الموقف مع نوح وابراهيم ومحمد عليهم الصلاة والسلام .. بأى عمل .. وأى شهوة تركتها لله عز وجل ؟ .. وأى قريب باعدته فى الله ؟ .. وأى بعيد قربته فى الله ؟ ..

قال : وسمعت فضيلا يقول :

« لا يترك الشيطان الانسان حتى يحتال له بكل وجه ، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله .. لعله يكون كثير الطواف . فيقول : ما كان احلى الطواف الليلة ؟ .. او يكون صائما فيقول : ما اثقل السحور ، او ما اشد العطش ؟ ..

فان استطعت ان لا تكون محدثا ولا متكلما ولا قارئا ـ ان كنت بليغا قالوا : ما أبلغه وأحسن حديثه ، وأحسن صوته ، فيعجبك ذلك فتنتفخ .. وان لم تكن بليغا ولا حسن الصوت قالوا : ليس يحسن يحدث ، وليس صوته بحسن ، أحزنك وشق عليك ، فتكون مرائيا .. واذا جلست فتكلم ، ولم تبال من ذمك ومن مدحك من الله فتكلم » ..

ودخل عليه قوم فقال : ممن ؟ .. قالوا : من خراسان ..

قال : « اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا ان العبد لو أحسن الاحسان كله ، وكانت له دجاجة فأساء اليها لم يكن من المحسنين » ..

وعن الفيض بن اسحاق قال : سمعت فضيلا يقول :

« لم تر اقر عينا ممن خرج من شدة الى رخاء ، ويقدم على خير مقدم ، وينزل على خير منزل ، فاذا راى ما يرى من الكرامة يقول : لو علمت ما سألتك الا الموت ..

ولم تر يوم القيامة أقر عينــا ممن خرج من الضيق والشــدة والجوع والعطش ، ثم نزل على الجنة يقول الله : « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » ..

ولم تر يومئذ اسخن عينــا ممن خرج من الروح والســعة ، والرخاء والنعمة ، ثم نزل على النار يقول الله : « ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » ..

وعن ابراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا احاسب بهــا فى الاخرة ، لكنت اتقذرها كما يتقذر احدكم الجيفــة اذا مر بها أن تصيب ثوبه » ..

وعن ابراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل يقول :

« لن ينجو عبد حتى يؤثر دينــه على شــهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه » ..

ويروى الفضيل عن محمد بن سوقة قال :

« أمران لو لم نعذب الا بهما لكنا مستحقين بهما لعذاب الله .. احدنا يزاد الشيء من الدنيا فيفرح به فرحا ما علم الله انه فرح بشيء زاده قط فى دينه .. وينقص الشيء من الدنيــا فيحزن عليه حزنا ما علم الله أنه حزن على شيء قط نقصه فى دينه » ..

ويروى الفضيل عن حصين عن بكر بن عبد الله قال :

« الرجل عبد بطنه ، عبد شهوته ، عبد زوجته . لا بقليل يقنع ولا من كثير يشبع ، يجمع لمن لا يحمده ، ويقدم على من لا يعذره » ..

وعن ابراهيم الطبرى قال : قال الفضيل :

« ما تزين الناس بشيء أفضل من الصدق ، والله عز وجل يسأل الصادقين عن صدقهم ، منهم عيسى بن مريم عليه السلام ، كيف بالكذابين المساكين ، ثم بكى وقال : أتدرون فى اى يوم يسأل الله عز وجل عيسى بن مريم عليه السلام ؟.. فى يوم يجمع الله فيه الاولين والآخرين ، آدم فمن دونه ، ثم قال :

« وكم من قبيح تكشفه القيامة غدا » ..

وعن اسحاق قال : قال الفضيل :

« طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله أنيسه ، وبكى على خطيئته » ..

وقال الفضيل :

« انما جعلت العلل ليؤدب بها العتاه ، ليس كل من مرض مات »

وقال رجل لفضيل : ان فلانا يعابنى .. فقال : قد جلب الخير جلبا ..

وقال عبد الصمد بن بزيد : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« أدركت أقواما يستحيون من الله سواد الليل من طول الهجعة، انما هو على الجنب ، فاذا تحرك قال : ليس هذا لك .. قومى خذى حظك من الآخرة » ..

وقال الفضيل : قيل لابراهيم : انك لتطيل الفكرة ، قال : الفكرة مخ العمل ..

وعن الفضيل قال : قال الحسن :

« الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك » ..

وقال عبد الصمد : سمعت الفضيل يقول :

« اذا اتاك رجل يشكو اليك رجلا فقل : يا أخي اعف عنه ..

فان العفو أقرب للتقوى .. فان قال : لا يحتمل قلبى العفو ولكن انتصر كما أمرنى الله عز وجل .. قل :

فان كنت تحسن تنتصر مثلا بمثل .. والا فارجع الى باب العفو فانه باب أوسع ، فانه من عفا وأصلح فأجره على الله .. وصاحب العفو ينام الليل على فراشه ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور » ..

وقال عبد الرحمن بن داود ، حدثنا الفضيل بن عياض قال :

« ما حليت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمة ، ثم لا ترى لها عاشقا » ..

وعن اسحاق بن ابراهيم قال : قال رجل للفضيل : كيف أصبحت يا أبا على ؟ .. — فكان يثقل عليه كيف أصبحت وكيف أمسيت — فقال : فى عافية .. فقال : كيف حالك ؟

فقال : عن أى حال تسأل ؟ .. عن حال الدنيا ، أو حال الآخرة ؟ ..

ان كنت تسأل عن حال الدنيا ، فان الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كل مذهب ..

وان كنت تسأل عن حال الآخرة ، فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفنى عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ، ولم يخضع للموت ، ولم يتشمر للموت ، ولم يتزين للموت ، وتزين للدنيا .. هيه .. وقعد يحدث — يعنى نفسه — ، واجتمعوا حولك يكتبون عنك .. بخ .. فقد تفرغت للحديث ، ثم قال : ها هـ — وتنفس طويلا — : ويحك : أنت تحسن تحدث ، أو أنت أهل أن يحمل عنك .. استح يا أحمق بين الحمقان .. ولولا قلة حيائك وسفاهة وجهك ، ما جلست تحدث وأنت أنت — أما تعرف نفسك ؟ .. أما تذكر ما كنت ، وكيف كنت ؟ .. أما لو عرفوك ما جلسوا اليك ولا كتبوا عنك ؟ .. ولا سمعوا منك شيئا أبدا .. فيأخذ فى مثل

هذا ، ثم يقول : ويحك ، أما تذكر الموت ؟ .. أما للموت فى قلبك موضع ؟ .. أما تدرى متى تؤخذ فيرمى بك فى الآخرة ؟ فتصير فى القبر وضيقه ووحشته ، أما رأيت قبرا قط ؟ .. أما رأيت حين دفنوه ؟ .. أما رأيت كيف سلوه فى حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة ؟ .. ثم قال :

« ما ينبغى لك أن تتكلم بفمك كلمة ـ يعنى نفسه ـ تدرى من تكلم بفقه كله ؟ .. عمر بن الخطاب .. كان يطعمهم الطيب ، ويأكل الغليظ .. ويكسوهم اللين ، ويلبس الخشن ، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم .. أعطى رجلا عطاءه أربعة آلاف درهم ، وزاده ألفا .. فقيل له : ألا تزيد ابنك كما زدت هذا ؟ .. قال : ان أبا هذا ثبت يوم أحد ، ولم يثبت أبو هذا ..

وعن محمد بن يزيد بن خنيس قال : قال رجل :

« مررت ذات يوم بفضيل بن عياض ، فقلت له : أوصنى بوصية ينفعنى الله بها » .. قال : يا عبد الله : « اخف مكانك ، واحفظ لسانك ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات كما أمرك » ..

وقال ابراهيم بن الاشعث : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« تزينت للناس ، وتصنعت لهم ، وتهيأت ، ولم تزل ترائى حتى عرفوك . فقالوا : هو رجل صالح ، فأكرموك ، وقضوا لك الحوائج ، ووسعوا لك فى المجلس ، وعظموك .. خيبة لك ، ما أسوأ حالك ان كان هذا شأنك » ..

وقال الفضيل :

« ترك العمل من أجل الناس هو الرياء ، والعمل من أجل الناس هو الشرك » .

وقال :

« من وقى خمسا فقد وقى شر الدنيا والآخرة :

« العجب ، والرياء ، والكبر ، والازراء ، والشهوة » . وقال :
« لان يطلب الرجل الدنيا باقبح ما تطلب به ، احسن من أن يطلبها باحسن ما تطلب به الآخرة » .

وكان الفضيل رحمه الله يقول :

« سيد القبيلة فى آخر الزمان منافقها ، وهناك يحذر منهم لانهم داء لا دواء له » ..

وكان الفضيل معنيا بالصداقة والصديق : يتحدث عن ذلك فى عدة مناسبات . ومن كلامه فى ذلك ما يلى :

عن يحيى بن يحيى قال : سمعت فضيل بن عياض يقول :

« اذا خالطت فخالط صاحب الخلق الحسن ، فانه لا يدعو الا الى خير ، وصاحبه منه فى راحة .. ولا تخالط سيء الخلق ، فانه لا يدعو الا الى شر ، وصاحبه منه فى عناء » .

وكان رضى الله عنه يقول :

« من طلب اخا بلا عيب صار بلا اخ » .

وكان يقول :

« لا تؤاخ من اذا غضب منك كذب عليك » .

وكان يقول :

« قد بطلت الأخوة اليوم .. كان الرجل يحفظ أولاد أخيه من بعده ويعولهم حتى يبلغوا رشدهم كأنهم أولاده » .

وكان يقول :

« ليس بأخيك من اذا منعته شيئا طلبه غضب منك » .

ومن كلماته :

« من اظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه ، واضمر له البغض والعداوة .. لعنه الله ، وأصمه ، واعمى بصر قلبه » .

وعن عبد الصمد بن يزيد قال : سمعت فضيل بن عياض يقول :

« انا لا اعتقد أخا الرجل فى الرضا ، ولكن اعتقد أخاه فى الغضب » .

وقال عبد الصمد بن يزيد مردويه ، سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« انما سمى الصديق لتصدقه ، وانما سمى الرفيق لترفقه ، ليس فى السفر وحده ، بل فى السفر والحضر » .

قلنا : يا أبا على فسر لنا هذا ..

قال : أما الصديق فاذا رايت منه امرا تكرهه فعظه ولا تدعه يتهور ، وأما الرفيق فان كنت أعقل منه فارفقه بعقلك ، وان كنت احلم منه فارفقه بحلمك ، وان كنت أعلم منه فارفقه بعلمك ، وان كنت أغنى منه فارفقه بمالك .. » .

وقال الفضيل :

« المؤمن يهمه الهرب بذنبه الى الله ، يصبح مغموما ويمسى مغموما » ..

وقال :

« حسناتك من عدوك ، اكثر منها من صديقك » .

قيل : وكيف ذلك يا أبا علي ؟

قال :

« ان صديقك اذا ذكرت بين يديه قال : عافاه الله .. وعدوك اذا ذكرت بين يديه يغتابك الليل والنهار .. وانما يدفع المسكين حسناته اليك .. فلا ترض اذا ذكر بين يديك ان تقول : اللهم اهلكه ـ لا .. بل ادع له : اللهم اصلحه ، اللهم راجع به .. ويكون الله يعطيك اجر ما دعوت به .. فان من قال لرجل : اللهم اهلكه ، فقد اعطى الشيطان سؤاله ، لان الشيطان انما يدور على هلاك الخلق » ..

وقال الفضيل بن اسحاق : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« ليس فى الأرض شيء أشد من ترك شهوة » ..

وكان يقول :

« لكل شيء ديباجة ، وديباجة القراء ترك الغيبة » ..

وكان يكره لقاء الاخوان مخافة التزين منه ومنهم ..

وكان يقول :

« اذا اغتابك عدو فهو انفع لك من الصديق ، فانه كلما اغتابك كان لك حسناته » ..

وعن عبد الصمد قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« اذا ظهرت الغيبة ارتفعت الاخوة فى الدنيا ، انما مثلكم فى ذلك الزمان مثل شيء مطلى بالذهب والفضة ، داخله خشب وخارجه حسن » ..

ومن كلماته :

« ليكن شغلك فى نفسك لا فى غيرك ، ومن كان شغله فى غيره فقد مكر به » ..

ومنه :

« أهل الفضل فى الدنيا ، هم أهل الفضل فى الآخرة ، ما لم يروا فضلهم » .

وكان يقول :

« عالم الآخرة علمه مستور ، وعالم الدنيا علمه منشور ، فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا ان تجالسوه ، فانه يفتنكم بغروره وزخرفته ، ودعواه العمل من غير عمل ، أو العمل من غير صدق » ..

وعن محمد بن زنبور قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول :

« أعلم الناس بالله أخوفهم له » .

وقال الفضيل :

« تكلمت فيما لا يعنيك فشغلك عما يعنيك ، ولو شغلك ما يعنيك تركت ما لا يعنيك » .

وعن عبد الصمد قال : سمعت الفضيل يقول :

« يكون شغلك فى نفسك ، ولا يكون شغلك فى غيرك .. فمن كان شغله فى غيره فقد مكر به » .

وقال الفضيل :

« لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وانما أدرك بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للامة » .

وقال لرجل :

« ما يؤمنك أن تكون بارزت الله بعمل مقتك عليه ، فأغلق دونك

ابواب المغفرة وانت تضحك ، كيف ترى حالك ؟ » .

وحدث خالد بن خداش قال : قال الفضيل :

ممن انت ؟

قلت : مهلبي .

قال :

« ان كنت رجلا صالحا فانت الشريف ، وان كنت رجل سوء فانت الوضيع كل الوضيع » .

ثم قال : حدثني منصور عن مجاهد قال :

« ان المؤمن اذا مات بكت عليه الارض اربعين صباحا » .

وقال الفضيل :

« لأن اطلب الدنيا بطبل ومزمار ، احب الى من ان اطلبها بالعبادة » .

وفي نهاية المطاف في مجال الأخلاق والفضيل ، نقول مع الشيخ ابو نعيم — صاحب الحلية .

« كلام الفضيل ومواعظه تكثر ، اقتصرنا منها على ما املينا ، نفعنا الله واياكم بها » .

ونروي ما رواه محمد بن زنبور قال : سمعت رجلا يقول :

رأيت فضيل بن عياض في المنام ، فقلت له : أوصني .

فقال :

« عليك بأداء الفرائض ، فاني لم أر قط مثلها » .

الفصل الثامن

التصوف

التصـــوف

ولقد التزم الفضيل ـ التزاما كاملا ـ مبدأ الصوفية الصادقين وهو ان التصوف مؤسس على الشريعة ، قائم بها ..

انه منبثق عنها ومستند اليها فى كل خطوة من خطواته ..

والتصوف معرفة ، وسلوك الى المعرفة ..

واسمى انواع المعرفة هى معرفة الله تعالى ..

وعن معرفة الله ، يقول الفضيل :

« من عرف الله من طريق المحبة ـ بغير خوف ـ هلك بالبسط والادلال ..

ومن عرفه عن طريق الخوف انقطع عنه بالبعد والاستيحاش .

ومن عرفه من طريقهما معا أحبه وقربه ، ومكنه وعلمه ..

ومن عرف الله حق المعرفة فهو بعيد عن الضلال ..

ومن أنزل الموت حق منزلته لم يغفل عنه » ..

ما الطريق الى ذلك ؟

ان الطريق الى ذلك يتسلسل بادئا من الاقبال على الله سبحانه وتعالى ، والاقبال على الله يهـــون من أجله كل شيء لان غايتــه لا تعدلها غاية :

يروى الفيض بن اسحاق انه سمع الفضيل بن عياض يقول :

« كنت قبل اليوم اعجب ممن يعطى ، وأنا اليوم لا اعجب ، لان الذى يطلب ليس صغيرا .. وانت لو بلغك ان رجلا تصـدق بألف درهم من ماله لتعجبت ، أو يكون صاحب غزو أو رباط لتعجبت ، وما تدرى ما تطلب لو كنت تعقل هذا ، ولكنك لا تعقله .. والله لو اخبرت عن جبريل واسرافيل بشدة اجتهاد ما عجبت ، وكان ذلك قليلا عندما يطلبون .. اتدرى اى شيء يطلبون ؟ .. واى شيء يريدون ؟ رضا ربهم عز وجل » .

الـخـلاص :

ولقد سأل عبد الله بن مالك الفضيل قائلا :

يا أبا على : ما الخلاص مما نحن فيه ؟

فقال له : اخبرني .. من أطاع الله عز وجل ، هل تضره معصية احـــد ؟

قال : لا .

قال : فمن عصى الله سبحانه ، هل تنفعه طاعة احد ؟

قال : لا .

قال : فهو الخلاص ان اردت الخلاص .

الاخلاص :

وهذا الخلاص يبدأ اول ما يبدأ بالاخلاص .. والفضيل يتابع فى ذلك القرآن الكريم ، والسنة الشريفة .. يقول الله تعالى :

« الا لله الدين الخالص » .

ويقول الله تعالى فى حديث قدسى :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى ، فأنا منه برىء ، وهو للذى أشرك »(١) .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ان الله تبارك وتعالى يقول :

« أنا خير شريك ، فمن أشرك معي شريكا فهو لشريكى ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم ، فان الله تبارك وتعالى لا يقبل من الاعمال الا ما خلص له .. ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ، فانها للرحم ، وليس لله منها شيء ، ولا تقولوا هذه لله ولوجوهكم ، فانها لوجوهكم وليس له منها شيء » (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« من فارق الدنيا على الاخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » (٣) .

والفضيل متابعا لذلك يقول :

« كان يقال : لا يزال العبد بخير ، ما اذا قال قال لله ، واذا عمل عمل لله » .

ويقول :

---

(١) ابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى ورواته ثقات

(٢) رواه البزار باسناد لا بأس به والبيهقى واختلف فى ارساله ورفعه .

(٣) رواه ابن ماجه والحاكم .

« لان اطلب الدنيا بطبل ومزمار احب الى من اطلبها بالعبادة ».

وكان فى شعوره دقة بالنسبة للمعنى الصادق للاخلاص .. انه يقول :

« لو قيل لى امير المؤمنين داخــل عليك ، فسويت لحيتى .. خفت ان اكتب فى جريدة المنافقين » .

ويعبر الفضيل عن صلة الانسان بالله ، فيقول لرجل :

« لاعلمنك كلمة خير من الدنيـــا وما فيها .. والله لئن علم الله منك اخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون فيك مكان لغيره ــ لم تساله شيئا الا أعطاك » .

الخوف :

هذا الاخلاص لا يتاتى أن يسير الانسان فى الحياة على صراطه المستقيم ، ما لم يكن عنده خوف من الله سبحانه وتعالى ..

يروى ابراهيم بن الاشعث قال : سمعت الفضيل بن عيــاض يقول :

« أعلم الناس بالله أخوفهم له » .

« وان رهبة العبد لله عز وجل على قدر علمه به » .

وفى هذا : يتابع الفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ يقــول :

« انا اتقاكم لله واشدكم خشية له » .

وان من خاف الله تعالى ــ كما يقول الفضيل ــ لم يضره شىء ، ومن خاف غير الله لم ينفعه احد .

ولقد كان الخوف طابعا للفضيل ، يقول ابراهيم بن الاشعث خادم الفضيل :

« ما رأيت احدا كان الله فى صدره أعظم من الفضيل .. كان اذا ذكر الله عنده ، أو سمع القرآن .. ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه .. فبكى حتى يرحمه من يحضره » .

الخوف والرجاء :

ومع ذلك فان الرجاء من الامور التى ينبغى للانسان ان يأمل لها باستمرار ، وعن الخوف والرجاء يقول الفضيل ..

« الخوف أفضل من الرجاء ، ما دام الرجل صحيحا .. فاذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف » .

ويقول :

« اذا كان فى صحته محسنا عظم رجاؤه عند الموت ، وحسن ظنه . واذا كان فى صحته مسيئا ، ســاء ظنه عند الموت ولم يعظم رجاؤه » .

العبــادة :

واذا شعر الانسان بالخوف من الله ، والرجاء فيه .. دفعه ذلك الى العبادة ..

ويروى الفضيل ــ فى العبــادة ــ بسنده عن عمر بن الخطــاب رضى الله عنه ، انه قال :

« الشتاء غنيمة العابد » (١) .

وسار الفضيل فى حياته على انها عبادة ... ان الله سبحانه وتعالى يقول :

---

(١) أى لطول ليله واتساع فرصة العبادة فيه .

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

اى ليصيروا الحيـــاة عبـــادة فى جميع حركاتها وسكناتها ، فى المصنع والمعمل والحقل والتدريس والوظيفة ـ اى أن الحياة يجب ان تطبع بطابع العبـــادة فتكون لله وحده فى جميع زواياها ، وتكون بذلك عبادة .. وان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير الى ذلك فى الحديث التالى :

« عن ابى ذر رضى الله عنه أن ناســـا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله .. ذهب اهل الدثور بالأجـــور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصـــوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ..

قال : أوليس قد جعـــل الله لكم ما تصـــــدقون به ؟ .. ان بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميـــدة صدقة ، وامر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة .

قالوا يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال : ارايتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ .. فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له أجر » (١) ..

وعن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال :

جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى فقلت : يا رسول الله .. انى قد بلغ بى من الوجع ما ترى ، وانا ذو مال ولا يرثنى الا ابنة لى .. أفأتصدق بثلثى مالى ؟ .. قال : لا .. قلت : فالشطر (٢) يا رســـول الله ؟ .. فقال : لا ـ قلت : فالثلث يا رســـول الله ؟ .. قال : الثلث والثلث كثير ـ أو كبير .. انك ان تذر ورثتك أغنيـــاء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجرت عليها حتى

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه

(٢) الشطر : النصف

ما تجعل فى فى امرأتك .. قال : فقلت : يا رسول الله .. أخلف بعد اصحابى ؟ قال : انك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله الا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون .. اللهم امض لاصحابى هجرتهم ولا تردهم على اعقابهم » (١) ..

وقد كان الفضيل من كبار المتعبدين ، وكانت لياليه تسير على النسق التالى :

« كان يلقى له حصير بالليل فى مسجده فيصلى من أول الليل ساعة ، ثم تغلبه عينه فيلقى نفسه على الحصير فينام قليلا ثم يقوم ، فاذا غلبه النوم نام ثم يقوم وهكذا حتى يصبح » ..

ويقول الفضيل :

« اذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل ، كبلتك خطيئتك » وكأن الفضيل يصف نفسه حينما يقول :

« ادركت أقواما يستحيون من الله فى سواد الليل من طول الهجعة .. انما هو على الجنب ، فاذا تحرك قال : ليس هذا لك .. نومى خذى حظك من الآخرة » ..

الذكر :

ومن العبادة الذكر :

ويروى ابراهيم بن الاشعث ـ الذى كان يلازم الفضيل ملازمة تامة ـ عن الفضيل قوله :

« الذاكر سالم من الاثم ، ما دام يذكر الله .. غانم من الأجر » ..

والصوفية على وجه العموم ينزلون الذكر منزلة سامية فى مجال العبادة ..

---

(١) متفق عليه

يقول الإمام القشيري :

« قال الأستاذ : والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى .. بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد الى الله الا بدوام الذكر » ..

والصوفية في ذلك يتابعون رسول الله صلى الله عليه وسلم متأسين به .. انه صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله عز وجل يقول

« أنا مع عبدي اذا هو ذكرني ، وتحركت بي شفتاه » (١) ..

وقال رجل للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله .. ان شرائع الاسلام قد كثرت علي ، فأخبرني بشيء أتشبث به ؟ ..

قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله .. مثل الحي والميت » (٣) ..

ولقد كان الفضيل معنيا برواية الأحاديث الصحيحة في الذكر .. ومما رواه رضي الله عنه في ذلك :

١ — روى الفضيل ، عن الثوري ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ما جلس قوم قط ، فتفرقوا ولم يذكروا الله ، ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، الا كانت عليهم ترة يوم القيامة .. ان شاء عفا عنهم ، وان شاء عذبهم » (٤) ..

٢ — وحدث الفضيل ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه

(٢) الترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٤) مشهور من حديث الثوري

ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى :

« من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه ، وان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة » (١) ..

٣ – وروى الفضيل بن عياض ، عن سليمان الأعمش ، عن أبى صالح ، عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان لله ملائكة – فضلا عن كتاب الناس – يطوفون فى الطريق ويبتغون الذكر .. فاذا راوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا الى حاجتكم ..

قال : فتحفهم بأجنحتهم الى عنان السماء .. فيقول الله – وهو اعلم – : ما يقول عبادى ؟ ..

قالوا : يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك ..

فيقول : هل راونى ؟ ..

فيقولون : لا ..

فيقول : كيف لو راونى ؟ ..

فيقولون : لو راوك كانوا اشد لك عبادة ، واشد لك تمجيدا ، واكثر لك تسبيحا ..

فيقول : فما يسألونى ؟

فيقولون : يسألونك الجنة ..

فيقول : وهل راوها ؟

فيقولون : لا .. والله يارب ما رأوها ..

فيقول : فكيف لو راوها ؟

---

(١) صحيح من حديث الاعمش

فيقولون : لو انهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا ، واشد لهـا طلبا ، واعظم فيها رغبة ..

فيقول : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : يتعوذون من النار ..

فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها ..

فيقول : فكيف لو راوها ؟ ..

فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة ..

فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم ..

فيقول ملك من الملائـكة : فيهم فلان ليس منهم ، انما جـاء لحـاجة ..

فيقول الله تعالى : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم (١) ..

الورع :

واذا أقبل الانسان على الله سبحانه وتعالى ، وصدق فى عبادته وفى ذكره تحرج فى حياته وتورع عن المحارم ..

ــ ولقد سئل الفضيل عن الورع ، فقال :

« اجتناب المحارم » ..

وقال : « أشد الورع فى اللسان » ..

الزهد :

وزهد فى الدنيا (الشهوات) ..

ولقد سئل الفضيل عن الزهد فى الدنيا ما هو ؟ فقال :

« القناعة ، وهى الغنى » ..

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما

وقال فى توجيه الناس الى الزهد :

« ان زهادة الانسان فى الدنيا ، على قدر رغبته فى الآخرة » ..

وقال :

« لو زهد العلماء فى الدنيا ، لخضعت لهم رقاب الجبابرة » ..

وكان يقول :

« من احب أن يسمع كلامه اذا تكلم فليس بزاهد »

ويصل الأمر بالفضيل أن يقول :

« جعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا »

ولقد كان الفضيل يعنى بذلك : الزهد فى الدنيا من أجل الله سبحانه وتعالى .. ان لا تشغل الدنيا الانسان عن الله .. أن لا تستعبده وتملكه وتسترقه ، فيصبح عبدا للدنيا والله يحب ان يكون عبدا له .. والدنيا التى ينفر منها الصوفية : هى عالم الاهواء والنزوات والشهوات ، ويقول الفضيل عن الدنيا :

« لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالى من اكل الدنيا »

التواضع :

ومن الخلق الصوفى التواضع .. وللفضيل تعريف جميل للتواضع .. يقول ابراهيم بن الأشعث :

« سالت الفضيل : ما الواضع ؟ فقال :

« أن تخضع للحق ، وتنقاد له .. ولو سمعته من صبى قبلته منه ، ولو سمعته من اجل الناس قبلته منه » ..

الصبر :

ولقد سئل الفضيل : ما الصبر على المصيبة ؟ .. فقال :

« ان لا تبث .. اى لا تشكو » ..

التوكل :

والتوكل فى عرف الصوفية الصادقين : هو اتخاذ الاسباب كاملة غير منقوصة ، مع الثقة فى الله قبل اتخاذ الأسباب ، وفى أثنائها ، ومن بعدها .. فاليه سبحانه يرجع الامر كله ..

ويقول الفضيل فى صفة المتوكل :

« المتوكل : الواثق بالله ، لا يتهم ربه ، ولا يخاف خذلانه ، ولا يشكوه »

المحبة :

ويصل الصوفى فى معراجه الى الله سبحانه وتعالى ، الى المحبة :

يروى ابو عبد الله الساجى ، ان رجلا سأل الفضيل بن عياض فقال :

« يا ابا على : متى يبلغ الرجل غايته من حب الله تعالى ؟ » . فقال له الفضيل : « اذا كان عطاؤه ومنعه اياك عندك سواء ، فقد بلغت الغاية من حبه » .

وروى الحسين بن زياد ، قال :

« أخذ فضيل بن عياض بيدى ، فقال :

« يا حسين : ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا ، فيقول : « من ادعى محبتى اذا جنه الليل نام عنى ! ! .. أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه .. ها انذا مطلع على أحبائى .. اذا جنهم الليل مثلت نفسى بين أعينهم ، فخاطبونى على المشاهدة ، وكلمونى على حضور ، غدا قر أعين أحبائى فى جناتى » .» .

أما حقيقة المحبة ، فقد قال الفضيل بشأنها :

« حقيقة المحبة : ايثار المحبوب على الكونين فى القرب والبعد »

الرضـــا :

والرضا : منزلة وازن كثير من الصوفية بينها وبين المحبـة ، وفضلوها على المحبة ..

وعن الرضا يقول الفضيل :

« درجة الرضا عن الله عز وجل درجة المقربين ، ليس بينهم وبين الله الا روح وريحان » ..

خاتمة

لقد أدى اعلام العلماء واجبهم فى تقدير الفضيل رحمه الله ، وفيما يلى بعض من كثير :

يذكر صاحب الجواهر المضية (١) :

الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ابو على : الامام الربانى التميمى اليربوعى الزاهد ، احد صلحاء الدنيا وعبادها .

وذكر الصيمرى انه احد من اخذ الفقه عن ابى حنيفة ، وروى عنه الامام الشافعى ، فاخذ عن امام عظيم ، واخذ عنه امام عظيم ، وهو امام عظيم ، نفعنا الله بهم آمين .

وروى له امامان عظيمان البخارى ومسلم .

وروى ابو وهب محمد بن مزاحم عن ابن المبارك :

« واما اورع الناس ففضيل بن عياض »

وقال الهيثم بن جميل عن شريك :

---

(١) جـ ١ ص ٤٠٩

« لم يزل لكل قوم حجة فى زمانهم ، وان فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه » .

وقال بشر بن الحارث :

« عشرة كانوا يأكلون الحلال لا يدخل بطونهم غيره ولو استفوا التراب ، فذكره فيهم » .

ويقول صاحب الكواكب عنه :

« التميمى ، الخراسانى ، شيخ الحرم ،

وكان اماما ربانيا صمدانيا قانتا زاهدا عابدا ، عظيم الشأن ، شديد الخوف ، دائم الفكر » .

ويقول عنه ابن سعد :

« نبيلا ، فاضلا ، عابدا ، ورعا »

أما صاحب ميزان الاعتدال (١) فانه يقول عنه :

« فضيل بن عياض الزاهد ، شيخ الحرم ، واحد الأثبات ، مجمع على ثقته وجلالته ، فالفضيل من مشايخ الاسلام » .

وقال الذهبى وغيره :

« كان سيدا ، عابدا ، ورعا ، زاهدا ، اماما ربانيا عالما فقيها ، وناهيك بمن يقول ابن المبارك رضى الله عنه فيه : ما بقى على ظهر الأرض أفضل منه » .

ويقول عنه صاحب تقريب التهذيب (٢) :

---

(١) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى جـ٢ ص ٣٢٤

(٢) تقريب التهذيب جـ٢ ص ١١٣

فضيل بن عياض بن مسعود التميمى ، ابو على ، الزاهد المشهور ، اصله من خراسان وسكن مكة ، ثقة عابد امام ، مات سنة سبع وثمانية ومائة »

ويقول عنه ابن كثير فى البداية والنهاية :

« ولد بخراسان بكورة دينور ، وقدم الكوفة وهو كبير ، فسمع بها الاعمش ومنصور بن المعتمر ، وعطاء بن السائب ، وحصين بن عبد الرحمن ، وغيرهم ، ثم انتقل الى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة ، كثير الصلاة والصيام ، وكان سيدا جليلا ثقة من ائمة الرواية » (١)

* * *

والذى نحب أن نقوله بعد هذا ،هو أن حياة الفضيل انما هى شعاع من نور يبدد الكثير من الشبهات الزائفة التى انتشرت هنا وهناك حول التصوف الاسلامى .

لقد كان الفضيل من أوائل الصوفية ، لقد عاش فى القرن الثانى الهجرى ، وكان عربيا من قبيلة تميم ، وكان عالما من كبار علماء المسلمين ، وكان يعيش من كسب يده .

ان حياته تكذب هؤلاء الذين يحاولون فى تعسف وفى زيف أن يجعلوا مصدر التصوف يونانيا :

افلاطونية أفلاطون ، أو أفلاطونية أفلوطين ، فلم تكن هذه أو تلك قد ظهرت فى العصر الذى عاش فيه ، ولم يعرف الفضيل

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨

هذه أو تلك ، ولم يكن يدور بخلده أن يستمد التوجيه من أفلاطون أو أفلوطين .

وحياة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يقولون : ان مصدر التصوف المسيحية ، فقد كان الفضيل غارقا فى التراث الاسلامى ، فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث وفى القرآن ، فى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى الوحى ، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية الا ما ذكره القرآن عنها ، أو ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ، مفسرا للقرآن ، ومبينا له ، وكان يقرأ فيما يقرأ :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »

وكان يقرأ :

« واذ قال الله يا عيسى بن مريم ءانت قلت للناس اتخذونى وامى الهين من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا اعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد ، ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

وكان يقرأ عن ضلال أهل الكتاب وانحرافهم الشىء الكثير .

كان يقرأ :

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون »

وكان يقرأ هذا النداء الحق الربانى الالهى الذى لم يستجب له اليهود ولا النصارى ، وهو حق واضح :

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ان المسلمين كانوا يرون — فى عهد الفضيل — من خلال القرآن هذا الضلال الذى انغمس فيه اهل الكتاب ويرون انهم اخطئوا الحق ، وانه ما دام الأساس الذى تقوم المسيحية عليه اذ ذاك باطلا ، فان كل ما يبنى عليه فهو باطل مثله ، ولا يتأتى اذا أن يكون القرب من الله وهو التصوف قائما على اساس باطل ، والغريب أنه مع وضوح موقف المسلمين العام من المسيحية وانها باطلة ، وأن الله يعبر عن بطلانها فى اساليب فى غاية القوة ، منها قوله تعالى :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، ان كل من فى السموات الأرض الا ءاتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا »

فانهم لا يتورعون عن اتهام الصوفية بالأخذ عن المسيحية

ان الصوفية ما كانوا يستمدون حياتهم ـ لا ولا قلامة ظفر ـ من باطل لأنهم على يقين من انه لا يمكن الوصول الى الله الا عن طريق الحق .

وحياة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يقولون : ان نشاة التصوف انما هى نشـــاة فارســية ، وان التصوف لا يتناسب مع الفطرة العربية ، والذى يقول ذلك هم المستشرقون ، لقد كان الفضيل عربيا خالصا وكان من ائمة الصوفية .

وحيـــاة الفضيل تكذب هؤلاء الذين يريدون ان يقـرنوا بين التصوف والجهل ، فقد كان الفضيل قمة فى العلم .

وهى تكذب أيضا هؤلاء الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة سوء تفاهم ، بل ان حيـــاة الفضيل هى عبـــارة عن سلوك ملتزم للشريعة ، وقد بينا ذلك من قبل ، ان حيـــاته انما هى تحقيق لقوله تعالى :

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

وهى تحقيق واتباع لقوله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله اســوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

رحمه الله رحمة واسعة .

وصلى الله على سيدنا محمد فى البداية والنهاية وفى كل نفس ولمحة الى يوم الدين .

رقم الايداع ٥٦٣٢ / ١٩٧١

الشعب

شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون [illegible]

اسم الكتاب	الفضل بن عياض صوفى من الرعيل
اسم المؤلف	عبد الحليم محمود
رقم اليومية	١٣٥٨
رقم التصنيفة	٩٢٢

رقم الاستعارة	تاريخ الاعارة	تاريخ الاعادة	ملاحظات

الثمن ٢٥ قرشا

مطابع دار الشعب بالقاهرة